في الحقبة التي كان الزميل الصحافي المتألق والمنفتح عثمان العمير رئيساً لتحرير صحيفة "الشرق الأوسط" كانت التطورات في السودان تتالى. وبحُكْم الزمالة وتقديراً مني للدور الذي تؤديه صحيفة "العرب الدولية" رفدْتُ الصحيفة بما طلب مني (وكنتُ في تلك الحقبة ناشراً ورئيس تحرير لمجلة "التضامن" التي أسْستها في لندن (دام صدورها عشر سنين) وأن أكتب لـ "الشرق الأوسط" بضع حلقات حول السودان الحائر الثائر الخائر بحُكم متابعتي للتطورات السياسية والإنقلابات العسكرية التي كانت تلازم الطبيعة السياسية لهذا الوطن الأشبه بـ قارة. وكانت الكتابات في شكل حلقات على النحو الآتي:

فؤاد مطر يكتب لـ «الشرق الأوسط»:

يا ليتهم تحاشوا: ... «الثورة»

ويا ليت الحلول تسبق الحساب العسير

فؤاد مطر يكتب لـ الشرق الأوسط:

يا ليتهم تحاشوا ... "الثورة"
ويا ليت الحلول تسبق الحساب العسير

كواحد من ابناء هذه الامة الذين يتابعون بالكثير من الاهتمام ما يجري في السودان وما يحدث له وحوله، كنت اتمنى ان يختار الاخوة الذين قاموا بعملية التغيير فجر يوم الجمعة ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٨٩ في السودان اسما آخر للعملية بحيث لا يعتبرونها ثورة.

ولدي من الأسباب الموجبة لهذا القول الكثير لعل اهمها على الاطلاق ان الانسان العربي والمواطن السوداني بشكل خاص ضاق ذرعا بالثورة والثورية الى درجة بات يشعر ان الثورة هي عليه وليست من اجله، فضلا عن ان المرحلة التي نعيشها هي مرحلة العودة عن الثورات وليس التطلع اليها.

كنت اتمنى ان يختار الاخوة بكل التبسيط تسمية «حركة ٣٠ يونيو للتغيير والاصلاح». ان مثل هذه التسمية كانت ستبعث الارتياح في النفس. وكانت ستطمئن القريب والاقرب والبعيد والابعد.

ثورة. ثورة. ثورة. لقد ارهقت هذه الكلمة اعصابنا. وهي منذ اكثر من ربع قرن وهي تعصف بالافكار الهادئة والواقعية المطلوبة.

بقلم: فؤاد مطر

والى ذلك اننا مازلنا نضمد بعض الجراح الناشئة عن الثورة التي قامت في ايران والتي كانت خيبة الامل بها كبيرة. ولولا ثورة الحجارة في الارض المحتلة التي عوضتنا بعض الآمال لكانت الخيبة اشد وابشع.

لقد اختار الاخوة الضباط الذين قاموا بالعملية الانقلابية تسمية «ثورة الانقاذ الوطني» لحركتهم وانشأوا مجلس قيادة ثورة لهذا الغرض. وكنا نتمنى ان تكون التسمية «حركة يونيو للانقاذ الوطني» ويقودها مجلس قيادة. ان مثل هذا الأمر كان سيدعو الى الارتياح وسيدعو - وهذا هو الاهم -

الى الاطمئنان.

اما وقد اختار الاخوة الصيغة والتسميات فليس لنا الا ان ندعو لهم بسعة الصدر.

ان للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قولا ما احوج الذين قاموا بعملية التغيير في السودان الى ان يردده كل منهم عند كل اجتماع وقبل كل قرار يتم اتخاذه وهو «ان خير الرجال بطيء الغضب سريع العفو».

وصحيح ان اهل مكة ادرى بشعابها واهل الحكم الجديد في السودان ادرى من غيرهم - ونحن من هؤلاء الغير - بمشاكل السودان وتعقيدات تركيبته الاجتماعية والسياسية، الا ان الصيحة الاولى لكبير الاخوة الفريق عمر حسن احمد البشير بان الحساب سيكون عسيرا لكل من اساء الى الشعب تجعلنا نشعر ببعض الخشية خصوصا ان اسلوب العسكريين في تصفية الحسابات يكون في اغلب الاحيان شديد الوطأة بحيث انه لا يفي بالغرض لانه يفتقد الى العدالة ولا يعرف الحلول الوسط.

ويبقى انه اذا كان هنالك ترحيب بحركة التغيير التي حدثت، فلأن مشاكل السودان كثيرة.

.. والمنقذ هو من يبدأ بحل هذه المشاكل. اما اذا هو فعل العكس، اي بدأ بتنفيذ الحساب العسير مع الذين اساءوا الى الشعب على ان ينتقل بعد ذلك الى حل مشاكل الشعب وتأمين احتياجاته، فان خيبة امل جديدة ستضاف الى مسلسل خيبات الأمل بالذين يتسلمون السلطة في السودان قدوما من الثكنات او من سرايات الزعامات الطائفية والحزبية.

يستأنف فؤاد مطر ناشر ورئيس تحرير مجلة «التضامن» غدا في «الشرق الأوسط» ما تبقى من حلقات «المطاردة المتواصلة في السودان بين الديمقراطية والجنرالات».

كواحد من أبناء هذه الأمة الذين يتابعون بالكثير من الإهتمام ما يجري في السودان وما يحدُث له وحوله، كنتُ أتمنى أن يختار الإخوة الذين قاموا بعملية التغيير فجْر يوم الجمعة ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٨٩ في السودان إسماً آخر للعملية بحيث لا يعتبرونها ثورة.

ولديَّ من الأسباب الموجبة لهذا القول الكثير لعل أهمها على الإطلاق أن الإنسان العربي والمواطن السوداني بشكل خاص ضاق ذرعاً بالثورة والثورية إلى درجة بات يشعر أن الثورة هي عليه وليست من أجْله، فضلاً عن أن المرحلة التي نعيشها هي مرحلة العودة عن الثورات وليس التطلع إليها.

كنتُ أتمنى أن يختار الإخوة وبكل التبسيط تسمية «حركة ٣٠ يونيو للتغيير والإصلاح». إن مثْل هذه التسمية كانت ستبعث الإرتياح في النفس. وكانت ستُطمئن القريب والأقرب والبعيد والأبعد.

ثورة. ثورة. ثورة. لقد أرهقت هذه الكلمة أعصابنا. وهي منذ أكثر من ربع قرن وهي تعصف بالأفكار الهادئة والواقعية المطلوبة.

وإلى ذلك إننا مازلنا نضمِّد بعض الجراح الناشئة عن الثورة التي قامت في إيران والتي كانت خيبة الأمل بها كبيرة. ولولا ثورة الحجارة في الأرض المحتلة التي عوضتْنا بعض الآمال لكانت الخيبة أشد وأبشع.

لقد إختار الإخوة الضباط الذين قاموا بالعملية الإنقلابية تسمية «ثورة الإنقاذ الوطني» لحركتهم وأنشأوا مجلس قيادة ثورة لهذا الغرض. وكنا نتمنى أن تكون التسمية «حركه يونيو للإنقاذ الوطني» ويقودها مجلس قيادة. إن مثْل هذا الأمر كان سيدعو إلى الإرتياح وسيدعو - وهذا هو الأهم - إلى الإطمئنان.

أما وقد إختار الإخوة الصيغة والتسميات فليس لنا إلاَّ أن ندعو لهم بسعة الصدر.

إن للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قولاً ما أحوج الذين قاموا بعملية التغيير في السودان إلى أن يردده كل منهم عند كل إجتماع وقبْل كل قرار يتم إتخاذه وهو «إن خير الرجال بطيء الغضب سريع العفو».

وصحيح أن أهل مكة أدرى بشعابها وأهل الحُكم الجديد في السودان أدرى من غيرهم ونحن من هؤلاء الغير بمشاكل السودان وتعقيدات تركيبته الإجتماعية والسياسية، إلاّ أن الصيحة الأولى لكبير الإخوة الفريق عمر حسن أحمد البشير بأن الحساب سيكون عسيراً لكل من أساء إلى الشعب تجعلنا نشعر ببعض الخشية خصوصاً أن اسلوب العسكريين في تصفية الحسابات يكون في أغلب الأحيان شديد الوطأة بحيث أن لا يفي بالغرض لأنه يفتقد إلى العدالة ولا يعرف الحلول الوسط. ويبقى أنه إذا كان هنالك ترحيب بحركة التغيير التي حدثت، فلأن مشاكل السودان كثيرة.

.. والمنقذ هو مَن يبدأ بحل هذه المشاكل. أما إذا هو فعَل العكس، أي بدأ بتنفيذ الحساب العسير مع الذين أساءوا إلى الشعب على أن ينتقل بعد ذلك إلى حل مشاكل

الشعب وتأمين إحتياجاته، فإن خيبة أمل جديدة ستضاف إلى مسلسل خيبات الأمل بالذين يتسلمون السُلطة في السودان قدوماً من الثكنات أو من سرايات الزعامات الطائفية والحزبية.

الإثنين ١٩٨٩/٧/٣

وقفة على أطلال تجربة الطادق المهدي:

المطاردة المتواصلة في السودان

بين الديمقراطية والجنرالات "1"

المطاردة المتواصلة في السودان بين الديمقراطية والجنرالات "١"

وقفة على أطلال تجربة الصادق المهدي

بقلم: فؤاد مطر

اعتز بصداقة تربطني بالسيد الصادق المهدي من دون أن يعني ذلك أن افكارنا يجب أن تكون متجانسة. وعندما يكون بين الناس عيش وملح كما يقول المثل الشائع فإن الصداقة تزداد وثوقاً. ولقد أكلتُ في بيته وتعرفت من خلاله ومن خلال زوجته السيدة سارة الفاضل على وجوه طيبة من طائفة الأنصار.

وعندما كان السيد الصادق يسعى من خارج السودان لكي يكون له دوره وشأنه كان بيتي ومكتبي في لندن دائماً مفتوحاً له. وكانت تصلني من الحُكم الذي يترأسه الرئيس جعفر نميري رسائل العتب الشديد على رغم أنني كنت قد حسمتُ الأمر مع هذا الحُكم عندما كنتُ أزور السودان في بدايات حُكم الرئيس نميري حرصتُ على أن أطلب منه أحياناً مباشرة وأحياناً من خلال المرحوم عمر الحاج موسى وزير الإعلام الذي خسرناه نحن معشر أهل الصحافة، أن أزور السيد الصادق في سجن كوبر. ولا أغالي

إذا قلتُ إنني صـــاحب الفكرة المتواضـــعة التي وضـــعتْها بلباقة أمام الرئيس نميري وخلاصـتها إنك إذا كنتَ لا تتحمل وجود الصـادق المهدي في داره وبين أهله وأنصـاره فمن الأفضل أن يكون مكانه خارج سجن كوبر.

وباللباقة نفسها إقترحتُ أن ينتقل الصادق المهدي من كوبر إلى القاهرة فهو من جهة يكون بعيداً عن السـودان وفي الوقت نفسـه تكون إقامته في القاهرة فرصـة لكي يطفىء نار الكراهية التي تشـتعل في صـدره. كراهية مصـر لأنها من وجهة نظره تتعامل مع السودان على أنه تابع لها وأن ما تقرره مصر يجب أن يقْبل به السودان. وكراهية جمال عبد الناصـر لأنه ثوري بينما حفيد المهدي محافظ إسـلامي التوجه، ولأن عبد الناصـر وضَـع القيود على حُكْم العائلات ووضَـع القيود في أياديهم، وأن ما يحدُث في مصـر يمكن أن يقلده الذين يحكمون في السودان. ولقد قلد هؤلاء بالفعل في وقت لاحق.

وفي القاهرة إستمرت العلاقة بالصـادق. وعندما قرر أن يعتمد العنف طريقاً للتغيير شـعرتُ أنني أمام زعيم يتحدث عن الديمقراطية بمفهوم خريج أكسـفورد لكنه في داخله غير ذلك.

ولعلني لا أبالغ إذا قلتُ إن النزعة الفاشـستية كانت تغلي في صـدره إلى درجة أنني أحياناً كثيرة كنت أتصـــور العِمَّة التي يغطي بها رأســـه أنها قبعة واحد من جنرالات جيوش العالم الثالث من الفئة الخامسة، وأن جلبابه هو بدلة ضابط وأن العصا التي يتوكأ عليها هي عصا ماريشال.

ولم أُصدِّق نفسي عندما سمعتُ أن الصـادق قاد عملية غزو من ليبيا ضد الحُكم في الســـودان وأن أعداداً كبيرة من الذين شـــاركوا في عملية الغزو إقتحموا المنطقة التي يسكن فيها الضباط في الخرطوم وأن عدداً من الضباط ذُبحوا وهم نائمون في أسِرتهم.

وبيني وبين نفســـي قلتُ: لقد إقترف الصـــادق المهدي غلطة العمر ولن يطمئنَ له الجيش في السـودان حتى إذا هو نجح في إسـقاط حُكم خصـمه العنيد جعفر نميري. ذلك أن من يريد أن يحكم السـودان ويَطمئن عليه أن يعتبر الجيش حليفاً وحرية الرأي متاحة والمخازن ملأى بالسـكر والشـاي والذُرة والزيت على الأقل لمدة ثلاثة أشـهر ومحطات البنزين ملأى بما يكفي شهريْن كحد أدنى.

كانت عملية الغزو غلطة العمر إلاَّ أنها لم تكن الغلطة الوحيدة. وكل الأغلاط سببُها أن السيد الصادق لم يحسم مسألة دوره وذلك لأنه لا يرضى بأن يكون جزءاً من كل وإنما أن يكون كل شيء.

ولأن المجال لا يتسع للحديث عن كل الأغلاط فإن التوقف عند خمس منها من شأنه أن يفي بالغرض.

الأُولى هي أنه عندما عقَد المصالحة الوطنية مع الرئيس نميري كان يجب أن يوقِف النظر إلى الماضي وكان عليه في الوقت نفسه أن يكون واقعياً إزاء واقع الحال. ولو أنه سَلك المنهج الواقعي وإرتضى أن يشارك في الحُكم بدل أن يتصرف من أجْل تقويض الحُكم، لكان إستطاع أن يساهم بفعالية في تقويم بعض الإعوجاج ولكان، إذا جاز القول، إستطاع ترويض حُكم الرئيس نميري الذي كان في أواخر سنوات السبعينات بدأ يحتاج إلى الإستقرار المدعوم من الزعامات الدينية.

لكن الذي حدَث هو أن الصادق المهدي عقَد المصالحة ولم يعْقدها وإرتضى التعايش ولم يرتضه وصافح ولم يصافح. وبدلاً من أن يعالج أخطاء إرتكبها حُكم الرئيس نميري وتراكمت بحيث صارت مدعاة للقلق، فإنه إرتأى أن يترك تلة الأخطاء تتحول إلى جبل، من دون أن يأخذ في الإعتبار أنه حتى إذا حالفه الحظ في الوصـــول إلى الحُكم فإنه ســيكون مســؤولاً عن معالجة هذا الكم الهائل من الأخطاء ولن يُقنع أحداً قوله إن هذه الأخطاء هي إرث غير مســؤول عنه، لأن هذا معناه أنه غير مؤهل لتســلُّم الحُكم. فإذا كان الذي يسعى للوصول إلى الحُكْم لا قدرة له على معالجة أخطاء الذين سبقوه وأنه سيقول للناس أنه لا علاقة له بهذه الأخطاء، فهذا يعني أن عليه أن يكون مستعداً لسماع مَن يقول له ولو همساً أو تمتمة: إذاً، إنك فقط تريد أن تحكُم .

وكان من شأن العمل الذي يجعل المصالحة تسير في إطار المنطق والعقلانية بعيداً عن الأطماع والتربص، أن يحقق للسودان إستقراراً نسبياً هو في أشد الحاجة إليه.

والغلطة الثانية هي أن الصــادق المهدي أبعد رموز المرحلة الإنتقالية بدل أن يختار لهؤلاء من الفريق سوار الذهب إلى عثمان عبدالله إلى الجزولي إلى آخرين.. مواقع في الصـــدارة، فإنه عملَ على إزالة آثار هذه المرحلة من دون أن يأخذ في الإعتبار الوهج الذي أحدثتْه داخلياً وعربياً ودولياً.

وأغلب الظن أنه أزال آثار هؤلاء وبسرعة خشية أن يكرر هؤلاء معه ما حدَث مع الرئيس نميري هذا من جهة، ولأنه في قرارة نفسه لا يتحمل منظر العسكريين ومَن هم في رتبة رائد وما فوق على أساس أن هؤلاء نواة الحركات الإنقلابية. واللافت للإنتباه أنه فعلَ ذلك على رغم أنه في الوقت نفسه هيأ وليَّ عهده الذي إختار له إسم جده (عبد الرحمن) ليكون ضابطاً في القوات المسلحة وأدخله الكلية الحربية في الأردن على أساس أن التربية العسكرية هناك لها تقاليدها. ومِن دون أن يدري فإنه بذلك لم يكن مصيباً لأن زملاء عبد الرحمن إعتبروه ضمناً وافداً عليهم مادام لم يبدأ دراسته العسكرية في الكلية الحربية في السودان .

والإبقاء على رموز المرحلة الإنتقالية إلى جانبه في الحُكم كان سيعني إرتياح الآخرين خارج السودان له وكان سيشكِّل نقطة جذْب لبضعة ملايين سوداني مغترب بحيث يفكر هؤلاء بالعودة بدلاً من أن ينشطوا وهم في الغربة لتأمين أعمال للأشقاء وأبناء العمومة الذين بدأوا منذ الأشهر الأُولى لعهد الديمقراطية يكتوون بنار البطالة والتضخم الذي تجاوز المئتين في المئة .

وفي الوقت نفسه إن الإبقاء على رموز المرحلة الإنتقالية كان سيجعل الصدمة أخف وطأة على الناس. وهؤلاء علَّقوا الآمال إلى أبعد الحدود فأصابتهم صدمة كان لها وقْع الصاعقة. وبعد حدوث هذه الصدمة إرتفعت أسهم رموز المرحلة الإنتقالية وإضطربت بورصة الديمقراطية السودانية التي باتت قيمتها مثْل قيمة الجنيه السوداني.

وإلى ذلك إن إشراك رموز المرحلة الإنتقالية كان من شأنه أن يُبعد عن حكومة الصادق المهدي صفة غير مريحة على الإطلاق وهي أنها حكومة لا تعتمد على أهل الخبرة وصِفة أُخرى تثير المخاوف في النفوس وهي أن الذي حدَث ليس تغييراً إيجابياً وإنما هو حلول حُكْم الإقطاع الطائفي محل حُكْم نميري. ومناسبة هذا الكلام هو أن الطائفتيْن (الختمية بشخص أُسرة الميرغني والأنصار بشخص أُسرة المهدي) تقاسمتا الحُكْم وكأنما المشكلة بهذه البساطة.. أو كما لو أن ذلك سيكون مقبولاً !

السبت ١٩٨٩/٧/١

وللحديث صلة عن بقية الأغلاط

وعن بعض الحقائق

الصادق المهدي بدأ الحكم وبين يديْه كتاب الثأر

المطاردة المتواصلة في السودان

بين الديمقراطية والجنرالات (٢)

الشرق الأوسط تتابع أحداث الخرطوم

المطاردة المتواصلة في السودان بين الديمقراطية والجنرالات "٢"

الصادق المهدي بدأ الحكم وبين يديه كتاب الثأر

بقلم: فؤاد مطر

هنالك تعبير معاصـــر يلتقي حوله الجميع وهو أن غلطة الشـــاطر بألف. وهنالك تعبير تراثي معروف وهو الذي تلخصـه عبارة «تبكي كالنسـاء مُلكاً لم تحافظ عليه كالرجال».

وفي هذه الدنيا جُل من لا يخطىء. والبشر معرَّضون للخطأ. والحكام عادة هم أكثر عرضة للخطأ. ولكن ثمة فروقات كبيرة بين خطأ وخطأ.

ومع الأسف إن السيد الصادق المهدي إرتكب من الأخطاء ما لا يُحصى. ونحن عملاً بتوضيح من القدامى الذين علَّمونا اللغة العربية نستعمل كلمة «غلط» بدل كلمة «خطأ». وهؤلاء يرحمهم الله كانوا يقولون لنا في مقاعد الدراسة إن الخطأ قريب من الخطيئة بينما الغلط معناه أخف وطأة بكثير.

وأمس اوضحتُ بإيجاز الغلطة الكبرى للصادق المهدي وهي الغزو الذي قاده مِن ليبيا لكنه تحطَّم وبشكل دموي في الخرطوم، ثم الغلطة الأُخرى التي تتعلق بالمصالحة الوطنية التي لم يُعطها القليل من الرعاية الكثيرة التي تحتاج اليها لكي تصمد، والغلطة الثانية التي تمثلت بنفض اليد من رموز المرحلة الإنتقالية وعدم الإبقاء عليهم يلتفون حوله وبذلك يُبعد مخاطر الذين يريدون الإلتفاف عليه ويخططون من أجْل ذلك.

ونعرض هنا اليوم الغلطة الثالثة من الأغلاط الخمس التي تشكِّل مع أغلاط أُخرى صغيرة الضربة التي أنهت محاولة أُخرى للحزبية في حُكْم السودان.

والغلطة الثالثة التي إرتكبها السيد الصادق أنه بدأ الحُكْم وبين يديْه كتاب الثأر يقرأ في صفحاته ويصفِّي الحسابات مع الذين له في ذمتهم «ديون» تدْخل في إطار الصراع على الحُكْم.

وعندما يبدأ زعيم سياسي مثْل الصادق المهدي الحُكْم ويخصص الجانب الأكبر من وقته لمنازلة الذين أساءوا إليه في الماضي فإن ذلك معناه أنه يهدر وقتاً في غير محله، ومعناه أيضاً أنه يخصص لحالة ثأر مِن هذا الخصم أو ذاك وقتاً يكون غالباً على حساب قضية أكثر أهمية، وتطْرُق بكل قوة على باب الحُكْم كي يهتم بها الذين هم حول السيد الصادق والصادق نفسه.

ولأن علاقتي بالصادق تجيز لي أن أسجل رأياً يُبعد عنه مخاطر التورط فإني تمنيتُ عليه كتابة أن يبدأ الحُكْم بمعزل عن خُطط الثأر التي أعدها وذلك خشية أن يصيبه ما أصاب الرئيس الراحل أنور السادات، الذي وجد نفسه فجأة في حالة ممارسة متعة الثأر من الذين كانوا كباراً في المكانة عندما كان هو صغيراً في الموقع الذي يشغله والأهمية التي يتحرك في دائرتها.

ولكن الصادق المهدي ربما من موقع النصيحة أو لأن الذي لا يستسيغ تصفية الحسابات أمر إستراتيجي مِن صُلب تفكيره، إعتبر أن الثأر من الخصوم أمر ضروري

يحقق له الإطمئنان كي يحكم طويلاً ويعوِّض الفرصة الأُولى التي ضاعت عندما ترأس الحكومة وهو في الثلاثين من عمره علْماً بأن تلك الخطوة ألحقت ضـــرراً به أكثر مما خدمتْه. وهل من المعقول أن يتسـلم رئاسـة الحكومة في بلد مثل السـودان شـاب في الثلاثين من عمره ولا تتعثر خطاه؟

إن الحُكم تجربة في الدرجة الأولى. ومَن يتسلم مسؤولية في سِن مبكرة وتكون هذه المسؤولية رئاسة مجلس وزراء فهذا يعني أن التوازن في الشخصية سيتعرض لبعض الخلل ولو بعد حين.

ولقد تشـعبت التصـفيات إلى درجة أن الحابل إختلط بالنابل وإلى درجة أن الثأر لم يقتصـر على السـيد الصـادق، وإنما بدأ الذين أوكل إليهم مهمات تنفيذية أمنية وإدارية يثأرون هم بدورهم. وفي أقل من سـنتين أصـبحت الديمقراطية خاوية بعدما تم تفريغها من محتواها.

ولم تستند عملية تصفية الحسابات والثأر إلى أُسس منطقية وإنما إلى المزاج في مصر. وهذه نقطة تستحق التأمل قليلاً فيها.

عندما أبرم الرئيس (الراحل) السـادات تلك الصـفقة الشـهيرة مع الولايات المتحدة وإسـرائيل ونعني بها صـفقة كامب ديفيد فإن الحُكْم المصـري كان يحتاج إلى غطاء عربي له. وبعدما تَقرر في قمة بغداد في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٨٧ إسقاط عضوية مصر في الجامعة العربية لم تعد الحاجة ماسة إلى غطاء وإنما كانت تحتاج إلى مَن هو أكثر من صـديق وأقل من حليف. وكان الرئيس نميري في ذلك الوقت هو الطرَف الذي لولاه لكانت العزلة قد أطبقت على مصـر وحولتْها إلى دولة إرتكب رئيسـها خطيئة في حين أن مؤازرة الرئيس نميري جعلت الرئيس السادات يجد في الشرفة السودانية مكاناً يتنشـق به بعض الهواء الذي يخفف من قسـاوة جفاف الأجواء التي أحدثتْها قرارات قمة بغداد.

ولا يزال ماثلاً أمامنا حجم تباهي الرئيس السـادات بما فعله، وماثلة أيضـاً أمامنا تصريحاته المتلاحقة حول أنه والسودان نصف الأمة العربية. ومع أن هذه التصريحات لم تتسم باللباقة وشكَّلت علامات إستفهام في الأفق العربي إلاَّ أن موقف الرئيس نميري

زمنذاك أنقذ هيبة الرئيس السادات فضلاً عن أنه جعل الغمامة القاتمة الثقيلة تنحسر بعض الشيء عن السماء المصرية وتغطي سماء السودان.

ومِن الطبيعي أنه إذا كان المصريون سعداء بالسلام الذي حققه الرئيس السادات فإن للرئيس نميري بعض الفضل فيه. ومِن الطبيعي أيضاً أنه مادام الأمر كذلك فإن الرئيس مبارك لا يمكن أن يسلِّم نميري إلى السودان وهو الذي له في مصر شعبية وحافظو ود بقدْر ما له من متحفظين على مواقفه وعلى وجوده في مصر. وهؤلاء من اليساريين الذين لهم في الأصل ثارات على نميري سببُها أنه نحر لهم رفاقهم في السودان بعدما حاولوا قلْب حُكْمه.

ولقد كان مستغرَباً وإلى الحد الأقصى من الإستغراب أن تستمر مطالبة الحُكْم السوداني بتسليم نميري حتى اللحظة الأخيرة. وكان مستغرَباً أيضاً أن السيد الصادق المهدي لم يأخذ في الإعتبار الحقائق التي أوردناها، ولم يأخذ أيضاً حقيقة أكثر أهمية وهي أن بقاء نميري في القاهرة يبقى أفضل بكثير للحُكْم السوداني مِن وجود الرجل في الخرطوم سواء داخل السجن أو خارجه. فإذا كان داخل السجن فهذا معناه أن الديمقراطية ليست بخير. وإذا كان خارج السجن فإن الرجل له رَبْعه وأهله وزملاء سلاح، وله أيضاً ما هو مهم وما هو أهم. أما المهم فيتمثل في رصيد ثلاث سنوات كان الحُكم فيها مستقراً وكان السودان فيها صاحب دور وشأن. وأما الأهم فهو أنه عقل تآمري ويملك إذا جاز القول موهبة في التخطيط للمؤامرات وبالذات ضد الحزبيين.

أما إذا كان الحُكْم السوداني يصر على مصر من أجْل تسليم نميري لكي تتم محاكمته وإعدامه فهذا، وعملاً بقاعدة «الدم يستسقي الدم»، سيجعل من نميري زعيماً مثْل ذو الفقار علي بوتو الذي شنَقه ضياء الحق فطاردت اللعنة الجنرال إلى أن سقطت طائرته أو تم إسقاطها لا فرق، وتسلمت السلالة الثانية لآل بوتو الحُكم بشخص السيدة بي نظير التي أثبتت وهي خريجة أوكسفورد أيضاً مثْل الصادق المهدي أنها أكثر حكمة وإن كانت أقل حنكة.

ثم هل إن مصر حسني مبارك كانت وهي التي تسعى إلى ترميم وضْعها ستضع بهذه البساطة سمعتها بين يديْ حُكم تغلي في صدره مشاعر الثأر إلى درجة أن هذا الصدر يبدو مثل المرجل، من دون أن تفرض على الصادق المهدي أقسى الشروط

وتطالب بإيداعها وثيقة تتعهد فيها الحكومة السودانية بأن تصون الرجل وتحافظ على حياته. وفي مثْل هذه الحال فإن أي أذى معنوي أو جسدي يلحق بالرئيس السابق نميري معناه أن مصر ستثير أزمة مع السودان.

وإلى ذلك من المهم ألاَّ تغيب عن البال تلك الواقعة المأساوية في شأن عمليات التسلم والتسليم ومدى الأذى الذي تتركه في النفس هذه العمليات. ونعني بهذه الواقعة تلك التي حدثت عام ١٩٧١ عندما جرى الإنقلاب الشيوعي بقيادة هاشم العطا على الرئيس نميري. ولقد حدَث أن الطائرة البريطانية التي كانت تُقل إثنيْن من قادة تلك المحاولة المقدم بابكر النور والرائد فاروق حمد الله وصلت إلى الأجواء الليبية في الوقت الذي بدأ وضْع الإنقلاب الشيوعي يتجه نحو الإستقرار. ولأن العقيد معمّر القذّافي كان في تلك السنة يخوض حرباً مقدسة تجاه الشيوعية فإنه إرتأى أن يساهم بضرْب الإنقلاب الشيوعي في السودان مِن خلال إضطرار الطائرة التي تُقل بابكر النور وحمد الله إلى الهبوط في مطار بنغازي بحجة أن مطار الخرطوم مقفل. ولقد حدَث ذلك على الرغم أن هناك إتفاقاً بين شركة الخطوط الجوية البريطانية والسفارة السودانية في لندن على أن مطار الخرطوم المقفل سيتم فتْحه فقط لإستقبال الطائرة البريطانية وطائرة أُخرى تشيكية تُقل الرائد محمد محجوب عثمان شقيق زعيم الحزب الشيوعي السوداني زمنذاك عبد الخالق محجوب.

وعند هبوط الطائرة البريطانية في مطار بنغازي ألقت السُلطات الليبية القبض على الضابطيْن ثم أُجريت الترتيبات اللازمة لتسفيرهما إلى الخرطوم، بعدما كانت المحاولة الإنقلابية الشيوعية قد إنهارت وعاد الرئيس نميري وتمت المحاكمات التي شملت بابكر النور وفاروق حمدالله حيث تم إعدام الإثنين مع بقية زعماء الحزب الشيوعي السوداني. وفي لقاء لي مع العقيد معمّر القذّافي آثرْتُ معه هذه المسألة وكيف أنه ليس من خصال العربي وبالذات إذا كان إبن صحراء مثل القذّافي أن يسلِّم أشخاصاً يعرف أنهم سيُشنقون أو يتم رميهم بالرصاص. ووجدْته على رغم مرور سنوات على الواقعة أنه كان ما زال متألماً بسبب حدوثها ورمى المسؤولية على صديقه زمنذاك الرئيس جعفر نميري الذي قال إنه عندما سلَّمه الضابطيْن كان يفترض أن يراعي نميري الأمر فلا

يحكم عليهما بالإعدام أو على الأقل يحكم بالإعدام لكنه لا ينفِّذ الحُكْم مراعاة للعقيد القذّافي.

وعندما أروي هذه الواقعة فلكي أقول إن الرئيس حسني مبارك لا يريد أيضاً أن يقال عنه ذات يوم أنه سلَّم صديق مصر وحليفها جعفر نميري إلى الصادق المهدي وأن الصادق عامله بالطريقة التي عامل بها الرئيس نميري بابكر النور وفاروق حمد الله.

وتبقى في معرض الحديث حول الغلطة الثالثة من أغلاط الصادق المهدي الخمس، الإشارة إلى أن عقدة نيريري - أوبوتي كانت تلاحق الصادق بإستمرار. وعندما كان ينساها أو يتناساها كان خبراء التنظير المحيطون به يقولون ويلحون في التحذير: إنتبه يا سيد. قد يحدُث لك ما حدَث مع ميلتون أوبوتي وقد تتكرر واقعة نيريري أوبوتي بحيث تصبح مبارك ـ نميري.

الأحد ١٩٨٩/٧/٢

وللحديث بقية عن هذه الواقعة
وعن بقية الأغلاط والحقائق

توقيت لإنقلاب في الخرطوم وأخطاء الصادق المهدي السياسة

المطارَدة المتواصلة في السودان

بين الديمقراطية والجنرالات (٣)

الشرق الأوسط تتابع أحداث الخرطوم

المطاردة المتواصلة في السودان بين الديمقراطية والجنرالات "٣"

توقيت الانقلاب في الخرطوم وأخطاء الصادق المهدي السياسية

بقلم: فؤاد مطر

عندما يُصر السيد الصادق المهدي على الرئيس حسني مبارك مِن أجْل تسليم الرئيس السوداني السابق جعفر نميري فإنه لا يكون بذلك يُحرج الرئيس المصري فقط وإنما يفعل ذلك من باب الحيطة. أو كمَن ينفِّذ ما يوصي به المَثَل الشعبي السائد والذي يعبِّر عنه شعب كل دولة عربية بطريقته ولهجته، وخلاصته إن الباب الذي يأتي منه الريح يجب على المرء إقفاله لكي يستريح.

وكان السيد الصادق ولكثرة إلحاح المحيطين به يوصونه دائماً بأخذ الحيطة. وكانوا يلجأون إلى التهويل والتخويف ولا يكتفون بالتحذير. وكانوا عندما ينسى السيد الأمر أو ينشغل بمسائل أُخرى يلجأون إلى تذكيره بالقول: الحيطة الحيطة يا سيد. الحذَر الحذَر يا سيد. التاريخ يمكن أن يعيد نفسه يا سيد.

وقد يكون الصادق مقتنعاً بما يُحذِّر منه المحيطون به، أو لا يكون إقتناعه كبيراً إلى حد الخوف من حصـــول ما لا يُحمد عقباه، إلاَّ أن كثرة الإلحاح منهم تحولت عنده إلى إلحاح أكبر يمارسه ضد الحُكْم المصري من أجْل تسليم نميري.

وكانت حجة المحيطين بالسيد الصادق أنه مادامت مصر لا تتحمل صيغة التكافؤ في العلاقة مع الســودان، فهذا معناه أن وجود الرئيس نميري في القاهرة هو للضـــغط على الحُكْم السوداني، وأن الرئيس مبارك ونتيجة بعض العوامل الموضوعية والظروف الإضطرارية قد يدعم نميري لكي يعود إلى السودان رئيساً على الطريقة التي عاد بها ميلتون أوبوتي إلى أوغندا رئيساً بدعْم من رئيس تنزانيا جوليوس نيريري.

ومن الخطأ الإفتراض بأن الرئيس مبارك يمكن أن يقْدِم على مثْل هذه الخطوة لو كانت حبال الود قائمة مع السيد الصادق المهدي، وذلك على أساس أن القاعدة التقليدية هي أن يكون حاكم السودان صديقاً لمصر بصرف النظر عمَن يكون هذا الحاكم. ولو أن الصادق المهدي جعل الود أساساً لعلاقته مع الرئيس مبارك لكان الرئيس المصري تحمَّس للصادق وسانده إلى أبعد حدود المساندة. لكن ماذا يفعل مبارك مادام الصادق لا يترك للود مكاناً، ومادام بموقفه هذا أحْدث خللاً كبيراً في العلاقات المصرية ـ السودانية وذلك لأن الختميين وهم الحلفاء التقليديون لمصـــر وشـــركاء الصـــادق المهدي في حُكْم الســودان باتوا عاجزين عن أن يفعلوا شـيئاً لمصـــر ســوى إظهار التأييد لها، لكن هذا التأييد كان يبدو دائماً غير فعَّال لأن منطلَقه أمام الآخرين كان التحدي للصادق أكثر منه التأييد لمصر.

إن من الخطأ الإفتراض بأن الرئيس مبارك يمكن أن يدعم نميري إلى حد إعادته رئيســـاً على طريقة عودة أوبوتي إلى أوغندا رئيســـاً لو كانت العلاقة ودودة بينه وبين الصادق المهدي، أما وأن العلاقة ليست كذلك، فضلاً عن أن الرئيس حسني مبارك يريد ترميم علاقات تقطعت أوصالها قبْل تسلُّمه الحُكْم خلفاً للرئيس السادات، فإن من الخطأ عدم الإفتراض بأن الرئيس مبارك لا يمكن أن يتدخل ويضـــغط.. بل وتصـــل به الحال إلى أن يمارس مع نميري ما فعله نيريري من أجْل ميلتون أوبوتي.

وفي أي حال إن نميري لم يمارس نشـــاطات تجاوزت الخط الأحمر إلاَّ أنه مارس النشاط الذي يمارسه أي حزب من أحزاب المعارضة في مصر. وكان في إستطاعة

الرئيس مبارك أن يطلب من نميري وبصفة صديق من صديق وقْف هذا النشاط. وكان نميري سيتجاوب. بل إن الرئيس مبارك كان سيطلب من أجهزته إفهام الرئيس السوداني السابق بأن الظروف دقيقة إلى درجة توجِب عليه عدم ممارسة أي نشاط سياسي إذا كان يَصعب عليه شخصياً الإتصال بالصديق الدائم لمصر والذي تفوقت علاقته بمصر على صداقة الختميين لمصر.

ولكن الذي حدَث هو أن نميري واصل النشاط لأن الرئيس مبارك لم يطلب منه.

وبما أنه رئيس سابق وخبرته في الحُكم عريقة فإنه وضع لتحركه حدوداً بحيث لا يتجاوز الخط الاحمر.

لكن الصادق المهدي لا يريد ذلك، وإنما يريد الرئيس نميري موضوعاً في طائرة ومنقولاً من القاهرة إلى الخرطوم على الطريقة التي يسلَّم بها رجال الإنتربول المطلوبين.

ولأنه يريد ذلك فإنه ألح وبالغ في الإلحاح. وعندما بدأ الرئيس نميري يوسِّع دائرة نشاطه، فهذا كان معناه أن أزمة كبرى يمكن أن تقع بين حكومة الصادق المهدي والحُكم المصري من نوع تلك الأزمة التي سبق أن حدثت بين الرئيس السادات والرئيس نميري.

ولو أن الإنقلاب الذي قام به العميد عمر حسن البشير فجر الجمعة ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٨٩ لم يحدُث لكانت الأزمة ستقع. وكان الصادق المهدي على حد قراءاتي لأفكاره وأسلوب تعاطيه في شؤون السياسة يريد من هذه الأزمة أن تحوِّل الأنظار عن بعض الأزمات الداخلية والإختناقات التموينية. وأُضيف إلى ذلك الإفتراض بأنه كان يريد من وراء هذه الأزمة الإيحاء بما معناه أنه إذا سقط الحُكم في السودان فإن ذلك سيكون نتيجة موقف مصر ودعْمها وتحركاتها.

ولعل من المهم الإشارة هنا إلى أنه إذا كان قد تم الإعلان رسمياً عن أن السيد الصادق سيسافر إلى ليبيا يوم الجمعة فهذا معناه أن الإنقلابيين نفَّذوا العملية قبْل أن يسافر لأنهم لا يريدون تنفيذ الإنقلاب بينما الصادق في ليبيا لأنهم في حال حدوث ذلك سيقضُّون مضاجع الحُكم الليبي في حين أنهم خططوا للإنقلاب مِن اجْل تصحيح مسار العلاقات مع الجميع، فضلاً عن أنهم يتذكرون النشاط الذي مارسه الصادق عندما كانت

ليبيا عمقاً إستراتيجياً له كزعيم للمعارضة ولا يريدون أن يجدوا أنفسهم إزاء الحُكْم في ليبيا مثْل حالة الصادق المهدى السيد الصادق يشعر بأن العقيد القذَّافي قد تخلَّى عنه. ولعله من اجْل ذلك كان في طريقه يوم حدوث الإنقلاب إلى ليبيا لكي يسأل العقيد القذَّافي: «ما الذي فعلْته بنا يا أخ معمَّر؟».

ولعل من المهم الإشارة هنا إلى أنه إذا كان قد تم الإعلان رسمياً عن أن السيد الصادق سيسافر إلى ليبيا يوم الجمعة فهذا معناه أن الإنقلابيين نفَّذوا العملية قبْل أن يسافر لأنهم لا يريدون تنفيذ الإنقلاب بينما الصادق في ليبيا، لأنهم في حال حدوث ذلك سيقضَّون مضاجع الحُكم الليبي، في حين أنهم خططوا للإنقلاب من أجْل تصحيح مسار العلاقات مع الجميع، فضلاً عن أنهم يتذكرون النشاط الذي مارسه الصادق عندما كانت ليبيا عمقاً إستراتيجياً له كزعيم للمعارضة ولا يريدون أن يجدوا أنفسهم إزاء الحُكْم في ليبيا مثْل حالة الصادق المهدي إزاء الحُكم المصري حيث كان الصادق يطلب من الرئيس مبارك في كل مناسبة تسليم نميري إلى السودان.

وأما إذا كان الإعلان عن سفر الصادق الى ليبيا لم يتم وبقي سراً فهذا معناه أن السيد الصادق مخترَق من جانب المجموعة التي تخطط للإنقلاب وأن أحداً من هؤلاء عرف من أوساط الصادق بموضوع السفر وأبلغه إلى الجهة الإنقلابية الأعلى فحدَث التنفيذ مخافة أن يغادر الصادق الخرطوم إلى ليبيا.

وإذا كان الصادق المهدي بإلحاحه على الرئيس مبارك إلى درجة الضغط تسليم نميري إرتكب غلطته الثالثة غير المريحة لزعيم يريد أن يحكم، فإن الغلطة الرابعة التي إقترفها كانت من النوع الذي يصعب عليه تحمُّل نتائجه.

ولقد تزامَن مع تسلُّم الصادق الدفة في السودان أن حدثت تلك الواقعة الدموية في مكة المكرمة عندما مارست مجموعات ثورية جاءت من إيران لتأدية فريضة الحج أعمالاً لا علاقة لها بالحج. وللتذكير فإن هذه المجموعات أمعنت في أعمال الفوضى فقتلت وهاجمت وأصابت وأحرقت وكانت تُخفي تحت ثياب الإحرام السكاكين التي يمكن إستعمالها في المطابخ.

وليس هنا مجال سرْد بشاعة ذلك العمل والأثر البالغ السوء الذي تركه في النفوس ولكن المهم في الأمر هو الموقف الذي إتخذه الصادق المهدي من الحادثة المحزنة.

وبصرف النظر عن المشاعر والدوافع وبعضها يتعلق بمواقف كان يتوقعها في فترة سَـجْنه فإن ما كان مطلوباً من الصـادق المهدي هو تسـجيل إدانة لهذا العمل الذي أقدم عليه بعض الإيرانيين الذين جاءوا إلى مكة لإشعال الفوضى فيها وتوزيع صور آية الله الخميني التي حملوا الألوف منها والقيام بتظاهرات يختلط فيها العنف بالشـعارات، ثم تتطور الأمور بحيث تغطي الدماء شوارع مكة ولا يعود الحج آمناً. وتلك خطة لا نعتقد أن السيد الصادق المهدي لا يدري أبعادها. ولكنه على رغم ذلك مارس كل الدبلوماسية، وبدلاً من أن يدين هذا العمل فإنه بدأ يتحدث بلغة مَن يريد إجراء حوار بين المذاهب.

حوار بينما سكاكين المطابخ في الأيدي وبقع الدم على الأرصفة وحالات من الهلع أصـابت هذا الحاج المسـن او تلك الحاجة التي تتحرك بخطى ثقيلة ووصـلت إلى مكة البلد الآمن من بلد بعيد لكي تُحقق لقاء العمر الروحي وتتعبد مع بضعة ألوف قدِموا لهذا الغرض. وعندما فعل ذلك لم يطلب أحد من الصـادق المهدي قوات تحمي الحجاج لأن ذلك ليس هو المطلوب ولم يطلب منه أحد أن يكون «يارينج» الحج أو «دي كويلار» الذي يبذل مسعى من أجْل لغة حوار مشتركة بين المذاهب.

ثم أليس هنالك حجاج سودانيون كانوا في مكة، وربما كان من الطبيعي أن تمسهم بسوء سكاكين المطابخ الإيرانية أو ينتابهم بعض الهلع أو تضغط على فرحتهم بلقاء العمر أجواء الذعر الناشيء عن الحرائق والفوضى؟

إن إتخاذ موقف الإدانة الصـريح والقوي كان أمراً طبيعياً وكان حقاً على كل حاكِم إسلامي أن يتخذه من أجْل دِين وفريضة ومِن أجْل بضعة آلاف من المؤمنين.

ولقد إفترض السيد الصادق أن الأمر يتطلب الحنكة. ولكن الإفتراض كان في غير محله. ولعل أبسط موقف كان يجب إتخاذه هو تسجيل الإدانة الأشد لما فعله «الحُجاج» الإيرانيون. وبعد إنتهاء الموسم وعودة الحجاج إلى ديارهم آمنين سالمين يطْلق السيد الصادق ما يريده من تصريحات في شأن الحوار بين المذاهب ويدعو إلى ندوة خاصة في الخرطوم يلبيها الراغبون في الحوار، عِلْماً بأن الندوة المطلوبة هي تلك التي تناقش ما فَعله الحُكم الأيراني الذي قام بعملية تصـدير «حُجاج» مدججين بصـور آية الله الخميني وسكاكين المطابخ ومعبئين بغضب على كل شيء منطقي.

وعدم تسجيل تلك الإدانة كان أمراً لا يمكن لرجل دولة ان يفعله خصوصاً أن عدم الإدانة أحياناً له فِعْل التأييد، تماماً مثْل حالات الإمتناع عن التصويت في الأمم المتحدة على قرار، فقط لأنه يمكن أن يشكِّل إدانة لإسرائيل.

إن المملكة إستناداً الى ما نعرفه وما حدَث بعد ذلك إختارت النهج الذي يميز بين المواطن والحاكم.

وهي من أجْل ذلك لم تتأخر في تقديم أي مساعدة للسودان يحتاجها الناس. ولعل الموقف الذي إتخذتْه المملكة عندما غضب النيل وكان فيضانه كثير القساوة خير ما يعبِّر عن ذلك النهج. ولقد لاحظ السودانيون أن المملكة أقامت جسراً جوياً ينقل كل شيء يحتاجه مواطن شرَّدته الفيضانات. وإستمر هذا الجسر بضعة أيام إلى أن زال الخطر بعض الشيء.

وللوهلة الأُولى بدا لي كواحد من الذين يعرفون جيداً طريقة تفكيره أن السيد الصادق يستعمل العلاقات التي بينه وبين إيران بما يحقق تأمين إحتياجات السودان.

الثلاثاء ١٩٨٩/٧/٤

وللحديث بقية عن هذه العلاقة

وعن التغريد خارج السرب

بعد لقاء الخميني في باريس بدأ اللغز الإيراني في حياة المهدي

المطاردة المتواصلة في السودان

بين الديمقراطية والجنرالات (٤)

الشرق الأوسط تتابع أحداث الخرطوم

المطاردة المتواصلة في السودان بين الديمقراطية والجنرالات «٤»

بعد لقاء الخميني في باريس بدأ اللغز الإيراني في حياة المهدي

بقلم: فؤاد مطر

في الوقت الذي كنا نعرض أغلاط الصادق المهدي الخمس الكبرى التي شكَّلت في معظمها السبب الأهم لحدوث الإنقلاب العسكري الذي قام به يوم الجمعة ٣٠ يونيو (حزيران) ١٩٨٩ مجموعة من الضباط يقودهم العميد عمر حسن أحمد البشير، إذا بالسيد الصادق المهدي يفاجئنا بالغلطة الأكبر وهي الهرب في محاولة للنجاة من القبض عليه وإيداعه السجن ومحاكمته.

وللهرب حسنات وسيئات. أما الحسنات فأهمها على الإطلاق أن الرجل يبقى قريباً من ناسه فلا يرتبكون ويقْدمون على أمور من شأنها تعقيد الموقف لأن ما فيه مِن تعقيد يكفي. وأما السيئات فلأن الهرب ليس من صفة الشجعان، وما هو معروف عن السيد الصادق أنه شجاع.

ولعل من المناسب هنا عدم الإكتفاء بالحسنة الأهم والسيئة الأهم، وسرْد ما هو الأقل أهمية من هذه الحسنات وتلك السيئات على أساس أن ما يبدو من وجهة نظري ككاتب يتابع التطورات التي تحدُث في السودان هو الأهم قد يكون في نظر الغير هو المهم وأن ما يرونه مهما قد يكون هو الأهم.

ومعذرة من كثرة شرْح هذه النقطة لكي لا يبدو أننا نتحدث عن لغز. ولنعْرض معاً بعض الحسنات والسيئات للهرب الذي نحن في صدد الإشارة إليه.

إن الهرب بالنسبة إلى زعيم مثْل السيد الصادق المهدي وهو الذي ذاق متاعب الإحتجاز والإعتقال من شأنه أن يُبعد عنه هذا الكابوس.

ومن شأن الهرب أيضاً أن يبدو أمام جماعته بأنه القادر على أن يختفي عن أنظار السُلطة بفضل العناية الإلهية التي تحرسه.

ومن شأن الهرب أن يوحِّد صفوف الأنصار فلا يتفرقوا ولا تتطاير طاقاتهم هنا وهناك.

ومن شأن الهرب أن ينجو من حماقة قد يقترفها أحد الذين يعتبرون أنفسهم ضحايا فترة الحُكم التي كان السيد الصادق فيها النجم الساطع في سماء السودان.

ومن شأن الهرب أن يحاول تحقيق التآلف بين القلوب وبحيث يتطور التآلف الى تحالف بين الصفوف. وبعد هذا التحالف تبدأ مرحلة الإستعداد لجولة أُخرى من المبارزة بعدما يكون الحُكْم الجديد قد إكتشف أن أمر حل مشاكل السودان ليس بهذه البساطة، وأن المسألة ليست عصا سحرية لمجرد أن يلمسها العاجز عن إيجاد حل لمشكلة فإن المشكلة تجد الحل على الفور.

هذا على صعيد الحسنات. أما على صعيد السيئات فإن الهرب سيجعل من الصادق هاجساً يأكل في صحن الحكام الجُدد وينام معهم ويلازمهم في تحركاتهم. ومثل هذا الهاجس معناه أن يرتبك عمل الذين قاموا بالإنقلاب بمعنى أهم بدل أن ينشغلوا في تحقيق هدفهم الذي هو إنقاذ السودان فإن إنشغالهم سينحصر في رصد هذا الهاجس وتعقُّب ظهوره والتحسب لما قد يَنتج عن هذا الظهور.

كما أن من سيئات الهرب أن الصادق المهدي قد يستفز الإنقلابيين الذين باتوا أقوى بعد إعتراف العديد من الدول بهم وبعدما أوفد كل من الرئيسيْن حسني مبارك ومعمَّر القذّافي مَن يمثِّلهما إلى الخرطوم للتباحث مع هؤلاء والوقوف على أمانيهم وتطلعاتهم.

ومَن يعرف السيد الصادق بمثل معرفتي به يدرك أن الرجل لا يتحمل الإستفزاز، فضلاً عن أنه ليس من السهل أن يتحمل تَصور تغيُّر حاله بين رمشة عين وإلتفاتتها.

ومن هذه صفاته وفي الوقت نفسه لديه هذا الكم الهائل من الأنصار يجنح إلى التحدي. ونخاف على الصادق الذي هرب أن يتمكن - وهو القادر على أن يجد في طول مدن وقرى السودان الموزَّعة على المليون ميل مربع التي هي مساحة السودان من يأويه ويحميه وينصره - من الوصول إلى قلعة الأنصار (الجزيرة أبا) وتتكرر مِن هناك المأساة التي سبق أن حدثت قبل بضع سنوات عندما واجه الأنصار برماحهم وسيوفهم وبنادقهم ورشاشاتهم وصلابة معتقداتهم القوات السودانية التي بعث بها الحُكْم الجديد زمنذاك ونعني به حُكْم الرئيس نميري.

ونخاف أيضاً أن تتحكم مشاعر العنفوان عند الإنقلابيين الجدد بمثْل ما سبق أن تحكمت في نفوس نميري ورفاقه فتحدُث المواجهة التي ستكون مشكلة إذا سال فيها الدم لأن الدم سيكون أكثر غزارة مِن ذلك الذي يسيل حتى الآن في الجنوب. كما أنها ستكون مشكلة إذا هي لم يحدُث حسْم لها.

وعندما نكتب هذه الأسطر فإننا نأخذ في الإعتبار أنه مثلما أن للسيد الصادق في طول السودان وعرْضه أنصاراً على إستعداد لإيوائه ونصْرته وتقديم العون له إلى أن يبلغ الهدف الذي يسعى للوصول إليه، فإن له أيضاً مَن هم على إستعداد للوشاية به أو إلحاق الأذى. وقد يتواصل الهرب لكنه لن يحقق الغرض في أي حال.

وقد تحدُث حماقة ويتم إنهاء حياة الصادق بالطريقة التي تم بها إنهاء حياة عمه الإمام الهادي. وهذه على ما يبدو سُنَّة مَن يرفع السيف في وجه الذين يقومون بإنقلاب داخل السودان أو خارجه وإن تفاوتَ رد الفعل تبعاً للمزاج ولنوعية الدم بمعنى أنه مِن النوع الذي يفور بسرعة أو يبقى ينساب بهدوء في شرايين صاحبه مهما كانت حدة الإستفزاز وشراسة أسلوب التحدي.

وما يجعلنا نَطمئن نحن الذين عرفْنا السيد الصادق وأحببنا فيه توجهاته الفكرية، أنه كان في بعض مجالسه يوجه اللوم دائماً إلى عمه الهادي ويقول عنه إنه بعناده أوصل الأنصار إلى حافة الهاوية وإنه إرتكب غلطة العمر عندما وضع كيان الأنصار في مواجهة مع المؤسسة العسكرية السودانية فإنتهى الأمر بنا إلى التشتت وإلى حد أننا لا نعرف حتى المكان الذي دفنتْه فيه قوات نميري. لكن هذا التقييم سمعناه من السيد الصادق عندما كان ما زال معارضاً وما زال غير مقتنع بصوابية خط عمه الإمام. والمعروف أن الذين ينتقلون من المعارضة إلى الحُكْم يعيدون النظر في بعض المفاهيم لإعتبارات تفرضها طقوس السُلطة التي تجعل المرء أحياناً يتساهل في الأمور المبدئية ويرى البديهيات أموراً صعبة. ولو كنا سنعْقد مقارنة بين مواقف السيد الصادق المعارض ومواقف السيد الصادق بعدما أصبح الرجل الأول والقوي في الحُكم فإننا سنكتشف أن الإستناد إلى مواقف الماضي يجب أن يكون على شيء من الحذر لأن الحُكْم يغيّر الرجال والطباع وأحياناً بإستدارة ١٨٠ درجة. وهذا ما حدَث للسيد الصادق ومعه.

ومعذور في ذلك أم غير معذور، تلك مسألة أُخرى. لكننا نخشى عليه بقدر ما يخشى الإنقلابيون الجدد منه، أن يتوَّج حالة الهرب بمواجهة جديدة لا ندري إذا كانت ستقتصر على الجزيرة أبا بعدما قيل إن الميليشيات جاهزة وفقاً لمفاهيم الخبرة والتعبئة التي تبدو إيران قريبة منها، أو على الأقل إنها ليست بعيدة عنها.

ولنتصور حجم هذه المواجهة في زمن تطورت فيها أدوات المواجهة فلم يعد الرمح والسيف وبنادق الأجداد هي السلاح، وإنما هنالك كل أنواع السلاح وهنالك حتى الصواريخ.

... وهنالك وفي السودان الخطر الكبير والشر المستطير، خبرة أربع عشرة سنة مِن الحرب اللبنانية التي تقوم على القصف العشوائي. وهنالك أيضاً إيران التي إستطاعت خلال حُكْم السيد الصادق أن تبني جسوراً بقوة الفولاذ معه. ولا ندري ما الذي فعلتْه خلال ثلاث سنوات إلاَّ أن الخشية كبيرة من أن تكون بعض مدنها مراكز تدريب للميليشيات وتكون قد زوّدت السيد الصادق بالكثير ما تحتاجه المواجهة التي كان على

رغم إستبعاده للإنقلاب العسكري ضد حُكْمه يعرف أن هذا الإنقلاب لا بد سيحدُث ذات يوم.

وعلاقة السيد الصادق بإيران ليست قديمة ولكنها تدعو إلى الحيرة.. ولأنني طرف طيِّب النوايا في هذه العلاقة فإنني أجد الفرصة مناسبة للتطرق إليها مستأذناً القارىء في أنني سأغفل بعض الوقائع لأن ليس كل ما يعرف يقال... أو بالأحرى يجب أن يقال، خصوصاً إذا كان الذي يعرف هو كاتب مثْل حالي تشاء الظروف أحياناً أن يسمع كلاماً بالغ الأهمية أو يشارك في مناسبة أو مناسبات يكون الكلام فيها على درجة عالية من الخطورة. وهذه في أي حال قاعدة أعتمدها منذ ربع قرن ودائماً أقول إن الصدر يجب أن يتسع لإستيعاب الغضب والأسرار. وأحمد الله أنني متمسك بذلك وأعتبره جزءاً أساسياً من أخلاقيات التعارف والتعامل.

كان الصادق المهدي في لندن عندما كان الخميني قد وصل إلى باريس واستقر به المقام في «نوفل لو شاتو». وفي ذلك الحين كان الخميني هدفاً يسعى إليه الصحافيون أمثالي والسياسيون المعارضون أمثال السيد الصادق المهدي الذي نلتقي به في إستمرار عندما يكون في لندن التي مارس فيها نشاطاً سياسياً عريضاً، وكانت إذا جاز التعبير مثْل محطة الأقمار الإصطناعية بالنسبة إلى نشاطه هذا وبالذات في السنتين اللتين سبقتا عودته إلى الخرطوم متصالحاً مع حُكْم نميري.

وذات يوم رتبت للسيد الصادق لقاءاً مع الخميني وتوجَّهنا من لندن إلى باريس. وكان مع الصادق أحد قادة الحركة الاسلامية في السودان عثمان خالد الذي كانت العلاقة مضطربة بينه وبين الدكتور حسن الترابي وكان بسبب ذلك حليفاً للصادق.

توجَّهنا من مطار شارل ديجول إلى مقر الخميني بعد إستراحة عابرة في الفندق. كان الجور بارداً. وكل منا يرتدي الثياب الثقيلة والمعاطف.

كان الترحيب حاراً بالضيف السوداني الكبير. وجلسنا أرضاً. الخميني في الوسط ونحن حوله. وكان آية الله منتظري في ذلك الوقت قد وصل حديثاً إلى مقر الخميني فشارك في اللقاء.

الحديث حول الإسلام. واللغة المشتركة هي الانكليزية. السيد الصادق يتحدث بالإنكليزية. والدكتور إبراهيم يزدي يترجم إلى الفارسية ثم يرد الخميني بالفارسية

ويترجم يزدي الكلام إلى الإنكليزية. وكان سيبدو الأمر مزعجاً جداً لو أن هنالك من لا يعرف الإنكليزية والفارسية خلال هذا الحديث حول الإسلام والقرآن الذي نزل على نبيه العربي.. عربياً.

ولم تستغرق الجلسة التقليدية على الأرض طويلاً. ثم أدى الصادق الصلاة وراء الخميني.

وبعد هذا اللقاء الذي كان ودوداً إزداد نميري تطرفاً في موضوع التوجه الإسلامي وإزدادت ضغوط دعاة هذا التوجه المحيطين به في القصر الجمهوري أو في قاعة الصداقة أو الذين يلتفون حوله لتأدية صلاة الجمعة في المسجد القريب من منزله.

ومِن خلال ذلك اللقاء في «نوفل لو شاتو» لم أقف على النوايا والأهداف. فاللقاء للتعارف. لكن الأمور تطورت بعدما زار الصادق المهدي إيران وعقدَ لقاءات مع اهل الحُكم الذي كان قد تسلَّم المقاليد هناك.

وفي تلك الزيارة لم يقابل السيد الصادق الخميني الذي بات لا يستقبل أحداً بعد عودته من المنفى، لكنه في اللقاءات التي عقدَها مع مراكز القوى المؤثرة في السُلطة زرع بذرة تعاون بينه وبين الحُكم الإيراني. ولمجرد أن حدثت الإنتفاضة وسقط حُكْم الرئيس نميري وبدأ الصادق يمارس دوره، بدأت النبتة الناشئة عن تلك البذرة تظهر وتَكْبر يوماً عن آخر. وعندما إنتهت المرحلة الإنتقالية وأصبح الصادق المهدي صاحب القرار الأول في السودان أحاط تلك النبتة بعنايته وفتحَ النوافذ السودانية أمام الإيرانيين الباحثين عن دول يتولون تصدير ثورتهم إليها والإنطلاق منها لتصدير هذه الثورة إلى مناطق أُخرى.

وإذا جاز التشبيه فإن الثورة الايرانية أرادت أن يكون السودان مثْل طائرة تقوم برحلة بعيدة ولا بد لها من التوقف في مطار في منتصف الطريق للتزود بالوقود.

تلك كانت أهمية السودان بالنسبة إلى الحُكم الإيراني. يريدونه للإنطلاق منه إلى أفريقيا لأن إيران بعيدة جداً عن القارة السمراء. ويرون في علاقة إستراتيجية مع هذا البلد ما مِن شأنه أن يشكِّل ضغوطاً على مصر بحيث تتوقف هذه عن مساندتها للعراق.

وقد إخترقت تلك العلاقة مع إيران والأفكار التي سمعها المهدي من «فقهاء» الثورة الإيرانية غشاء الواقعية في تفكير الصادق، فجعلتْه نتيجة ذلك يعرِّض علاقاته بالقوى

السياسية التي لا بد من مؤازرتها كي يحقق السودان بعض الإستقرار إلى الإهتزاز.. ولقد إهتزت هذه العلاقات بالفعل وحدث ما يجوز إعتباره نفض اليد من الحُكْم الذي يقوده الصادق وفي بعض المراحل كادت ثقة العراق بالسيد الصادق تتوافر خصوصاً بعد لقاء صريح تمَّ بين الرئيس صدَّام حسين والسيد الصادق وكان إنطباع الرئيس العراقي عن الصادق جيداً، لكن سرعان ما تبددت هذه الثقة وحل محلها الحذر، بعدما فوجيء الرئيس صدَّام بموقف من الصادق يصعب على كثيرين فهمْه سوى أنه الإساءة عن سابق قصد وتصميم.

ومِن الطبيعي عندما يكون العراق يعيش وهج إنجازات معركة التحرير ثم تعمد حكومة السيد الصادق إلى تحويل أنظار السودانيين عن هذا الوهج بتوجيه الإتهام إلى دبلوماسي عراقي بأنه يُشتبه بوجود علاقة له في حادث إغتيال مهدي الحكيم في فندق هيلتون - الخرطوم.. مِن الطبيعي عندما يحدُث ذلك أن تصيب العراق خيبة أمل كبرى بهذه الغلطة التي يقترفها السيد الصادق المهدي والتي لا تبدو عفوية وإنما هي متصلة في شكل أو آخر بـ «اللغز الإيراني» في حياة السيد الصادق المهدي وبالذات بعد لقاء التعارف بالخميني في باريس، وبعد لقاءات لا ندري ما الذي جرى بحْثه فيها تمت في إيران. ويبقى أن فرصة ذهبية ضاعت على السودان هي فرصة أن يكون هنالك عهد من الديمقراطية ويحكُم البلد زعيم له ثقافة السيد الصادق المهدي وشعبيته.

ولكن الصادق تعثَّر لأنه إستمر أسير الإمامة والحُكْم. إمامة طائفة الأنصار وحُكْم السودان.

ولقد ضاع الحُكْم

... وتعقَّد موضوع الإمامة.

وبقي السودان عرضة لمطاردة أُخرى بين الديمقراطية والجنرالات.

الأربعاء ١٩٨٩/٧/٥

بهذه الحلقة تنتهي حلقات «المطاردة المستمرة في السودان بين الديمقراطية والجنرالات» التي كتبها بطلب من «الشرق الاوسط» الزميل فؤاد مطر ناشر ورئيس تحرير مجلة «التضامن» التي تصدر من لندن

رسالة من قارىء يعقّب على فؤاد مطر

المهدي كان ديمقراطياً بدون دكتاتورية مدنية

الشـرق الأوسط
العدد ٣٩٧٣ / السبت ١٤ ـ ١٠ ـ ١٩٨٩ No. 3973 / Saturday 14-10-1989
البريد
١٦
إلى الشـرق الأوسط
قارئ يعقب على فؤاد مطر
المهدي كان ديمقراطياً بدون دكتاتورية مدنية
الصادق المهدي

تلقَّى الزميل فؤاد مطر رئيس تحرير مجلة «التضـامن» هذه الرسـالة من القارىء السـوداني كباشـي عوض الله تعبيراً عن وجهة نظر القارىء في ما سبق وأن كتبه الزميل فؤاد مطر على صفحات «الشرق الأوسط» حول ذكرياته عن النظام السابق في السودان وعن الصادق المهدي رئيس الوزراء السوداني السـابق. وقد أحال الزميل فؤاد الرسـالة إلى «الشـرق الأوسـط» لنشْرها على صـفحة البريد التي تحرص «الشـرق الأوسـط» من خلالها على عرْض الرأي والرأي الآخر تأكيدا لديمقراطية الحوار وسـعياً نحو المزيد من إلقاء الضـوء على الحقائق التاريخية وإيماناً منا بحرية النشر..

إلى الاستاذ فؤاد مطر:

لقد تابعتُ بكل شـغف موضـوعاتكم في جريدة «الشـرق الأوسـط، صـبيحة الإنقلاب في السـودان ومسـلسـل ذكرياتك عن الصـادق المهدي رئيس الوزراء في التجربة الديمقراطية الثالثة في السـودان مؤكداً إعتزازك بصـداقته، ولا أحد يشـك قط في عُمق

صـداقتك للصـادق المهدي ومدى إهتمامك به أكثر من غيره كصـديق ورجل سـياسـة وطني محنَّك.

لقد أعطيته حق الصـداقة والزعامة السـياسـية بشـتى أشـكالهما من إحترام وتقدير وكتابة عن شـخصـه ووطنيته وسـياسـته وتطلعاته السـودانية والإقليمية والعالمية. وقليل مَن وجدها عندك غيرة وكانت بقناعة تامة وثقة من شخصكم الصحفي والكاتب والناشر الضليع في الشؤون العالمية وخاصة العربية والسودانية، وكانت حقاً ذات أهمية وفائدة وأظنك تكون نادماً عليها يوماً لأنها حقيقة سَجلها التاريخ ولا بد أن يعيدها.

لقد إعتبرتَ النقاط الخمس التي ذكرتْها على أنها أخطاء إرتكبها الصادق المهدي في حياته السياسية وغيرها كثير، لسنا بصدد صحتها أو عدم صحتها إنما بصدد ربْطها بالظروف السياسية السودانية والعربية اليوم دون أن نحلِّل دوافعها وأسبابها السياسية لكل منها إذا اعتبرناها أخطاء.

وبما أنك أكثر الصحفيين العرب إعتدالاً ومعرفة بما يدور أمام وخلف الكواليس في السـياسـة وأكثرهم دراية بتوجهات المهدي ونقْده البنَّاء لسـياسـة المنطقة، فأنت أدرى بالظروف التي أدخلت السـودان في النفق المظلم الذي يصـعب الخروج منه فكنتَ أكثر إعتقاداً بأنك أول من سيسوِّق المبررات والأسباب لسياسات المهدي.

إن الكل يعرف ما أصاب السودان والشعب والصادق المهدي وأنصاره من أضرار ووهَن ودمار للوطن في عهد نميري وطريقة حُكْمه. فلم تطلب منه يوماً كصـديق أن يكف عن دمار السـودان ويرحم الشـعب لا بالطرق الدبلوماسـية ولا بالعلاقات الأزلية بالعروبة والإسلام.

فبماذا يتخلص الوطنيون والحريصون على السودان والشعب من ذلك الحُكْم بعد ما فشـلت كل المحاولات في إصـلاحه أو إزالته عسـكرياً. لقد كان الغزو من ليبيا الخيار الوحيد والأنسب لمجابهته.

ولولا ذلك لما إسـتفاق نميري وأصـدقاؤه من تكرار أخطائهم في السـودان فسـعوا بشـتى الطرق إلى المصـالحة التي قَبِلها المهدي دون غيره وجازف بحياته من منطلق وطنيته وحِرْصه على الوطن وإستقرار الشعب. ولكن نميري وأصدقاءه لم يوفوا بشيء من شـروط المصـالحة وحاولوا إرضـاء المهدي بالمناصـب إعتقاداً منهم أنه يجري

ويسعى وراء تلك المناصب وربما يتخلى عن المصالحة، فرفض المهدي تلك الصفقة وإعتبرها خيانة في حق الوطن والشعب والمبادىء، وأعلن معارضته للنظام بعد ما قَبِلها الأخوان المسلمون. وكان مصير المهدي السجن حسْب ما طلبتَ من صديقك نميري. فصَبَر المهدي والشعب السوداني على المجاعة والفضيحة إلى أن كانت الإنتفاضة في أبريل (نيسان) ١٩٨٥.

وكرَّم الشعب السوداني قواته المسلحة لإنحيازها لمصلحته ومصلحة الوطن فتركت له الحُكْم سنة إنتقالية لترتيب حال الوطن حتى تنتظم القوى السياسية في البلاد وتُجرى الإنتخابات. فتسلَّم المهدي السُلطة في السودان ولم يرفض بقاء رموز الحكومة الإنتقالية، ولكن الديمقراطية هي التي أبعدتهم حيث أن الشعب لم ينتخب واحداً منهم غير حسين أبو صالح، كما ترك المهدي الخيار للعسكريين بالبقاء في الجيش إذا أرادوا.

فالمهدي ليس هو الجهة التي تُشرك رجال الحكومة الإنتقالية أو تطردهم، فالشعب هو صاحب القرار وهو الذي أتى بالمهدي نفْسه. كما أن رجال الحكومة الإنتقالية هم سبَب كل العثرات والإخفاقات والمشاكل التي لازمت حكومات المهدي لأنهم إنشغلوا بالشهرة الأدبية وتركوا مشاكل السودان بدون حل.

يعجب المرء من الأسلوب الدرامي الذي سقت به عملية الثأر عند المهدي، ولولا معرفتي بعمق صداقتك له لقلتُ مدفوع لك الأجر لنقْد الصادق المهدي الصديق لتقلل لقب الزعيم من مكانته السياسية وتسحب لَقَب المخضرَم الذي أطلقْته عليه في الماضي أمام الرأي العام ليتساوى مع نميري صديقك السابق وشاكلته من القادة.

لا شك أنك تابعتَ إنتخابات السودان وعرفتَ الطريقة التي إختار بها المهدي نوابه وقسَم بها مناصب الحزب. والحكومة كانت في منتهى العدالة والديمقراطية سياسياً حيث دخلت فيها شخصيات كانت في الإتحاد الإشتراكي ولم يحاسبها المهدي وقال يومها نحن أولاد الحاضر وليس الماضي.

قد أوافقك على إخفاقات حصلت فيما بعد ولكنها ليس بدافع تصفية حساب لمواقف سابقة كما ذكرْتَ، ولكنها تكتلات قَبلية وتَنافس مثْل مشكلة بكري عديل ومادبو ونصر الدين الهادي وهذه طبيعية في الأحزاب نجدها في كل دول العالم الديمقراطية.

قد تعلْم أن المهدي قضـــى أكثر من نصـــف مدة حُكْمه وبذَل جهده مع كل القوى السياسية من أحزاب ونقابات وإتحادات في سبيل الوصول إلى حد أدنى من الوفاق مِن أجْل توحيد الجبهة الداخلية بشتى الطرق الديمقراطية والأساليب السياسية دون أن يفكر أو يستغل منصبه لتصفية حساب قديم. وأقرب الحالات مثالاً موقف الجبهة العدائي الذي إنقلب إلى تَحالف وشـراكة في الحُكم، وكذلك مواقفه مع الحزبيْن الإتحادي والشـيوعي رغم المكايدات والتآمر العلني مما حدا بشخصيات الحزب الكبيرة أن تحذِّر المهدي من مغبة تلك الصداقة والمجاملة مع الأعداء التقليديين.

قد نتفق أن ما اصـــاب المهدي طيلة حُكْم نميري كفيل أن يجعلنا نحكم عليه بتلك الروح العدائية والقاسية، وهذا ما كانت تتوقعه كل القوى السياسية في السودان. ولكن وطنية المهدي وثقته بنفسه وفي ديمقراطيته وحِرصه على السودان وإستقلاله أكبر من الحقد وأخْذ الثأر مثلما نراه اليوم بين قادة الأمة العربية في كل شـــيء، ولبنان أصـــدق شاهد.

أتحدى مَن يقول أنه سمع الصادق المهدي يذْكر الماضي أو يتحدث عنه في مجالسه الخاصة أو أساء إلى شخصية سودانية أو زعيم أجنبي.

عزيزي فؤاد مطر:

لقد رميتَ الصادق بالنزعة الفاشستية وشبَّهته بأحد جنرالات العالم الثالث من الفئة الخامسة، وأن ديمقراطية اكسفورد كانت غطاء فقط. لقد أخفقتَ في إلصاق هذه التهمة للصادق المهدي وصححتَ مفهوم ورؤية أعداء المهدي.

لو أوردتَ هذه التهمة قبْل إستلام المهدي للسُلطة لصدَّقك المنافقون والحاقدون على المهدي في الداخل والخارج، ولكن للأسف بعد الثلاث سنوات من حُكم المهدي قد تفقد مصـــداقيتك أمام الشـــعب الســـوداني، وهو الذي كان يجد في كتاباتك وتحليلاتك عن السودان كثيراً من الواقعية والحقيقة.

لو استطلعتَ اليوم رأي الشعب السوداني بكل زعمائه ومثقفيه لوجدْتهم عاتبين بشدة على المهدي لتطبيقه الديمقراطية في الســـودان بدون دكتاتورية مدنية في تلك الظروف حتى أصبحت خطيئته الكبرى أمام الشعب السوداني.

فآلصادق المهدي لم يستغل منصبه يوماً لأخذ ثأر من أحد في السودان أو خارجه قديماً أو حديثاً.

لقد ذكرتَ أن المهدي كان لاجئاً سياسياً في مصر مثْل نميري اليوم. المهدي كان لاجئاً سياسياً بحق وحقيقة لأنه نادى بالديمقراطية وحقوق الشعب السوداني رافضاً الدكتاتورية والقمع العسكري. ولكن بماذا نادى نميري حتى يكون لاجئاً سياسياً مِن الدرجة الأُولى في مصر الشقيقة، أليس هو الذي سفك دم الأبرياء وقيَّد الحريات ورهنَ الوطن إقليمياً ورحَّل الفلاشا على حساب القضية الفلسطينية؟

أخي الأستاذ فؤاد مطر، بماذا نفسر إنقلابك المفاجيء على صديقك الصادق المهدي؟ أليس هو الصادق المهدي الذي كتبتَ عنه ما لم تكتبه في حياتك الصحفية عن غيره منذ إحترافه السياسة؟

كان دائماً سبقُك الصحفي في مجلة "التضامن" ومادتها الأساسية لترويجها في الدول العربية. إنني املك أكثر من مائتي عدد من مجلة "التضامن" تحمل صورة المهدي وتتحدث عنه والسودان. لم يكن أمامي إلاَّ تفسير واحد هو أنك لم تجد عند صديقك الحميم الصادق المهدي ما كنت تجده عند إستلامه السُلطة مقارنة بأيام نميري، ولذا أسقطتَ المهدي من حساباتك وإعتبرتَ نجمه آفلاً إلى الأبد ولا بد من البحث عن غيره أو التعلق بخيط الأمل في رجوع الصديق السابق نميري، ولذا كنتَ أسرع من أعداء المهدي في الداخل والخارج في النقد والتشفي لحياته السياسية العامة والخاصة وترميه بما لم يكن فيه من صفات مثل (الدم يستسقى الدم). وأنت تعرف ما أصاب المهدي والشعب السوداني والوطن، ليس من نميري وحده ليستسقي منه المهدي، بل كانت الإصابات المؤلمة مِن شتى جماعات الداخلية وحلفائه في الخارج.

ويكفي موقفه كرئيس دولة من قتلة عمه وأنصاره في جزيرة أبا وفي ود نوباوي بعد كل إعترافاتهم الصريحة ولم يحاكَموا حتى الآن.

لم أكن أتوقع من الأستاذ الصحفي الضليع فؤاد مطر صديق الصادق المهدي السياسي المخضرم، أن يقف مثْل هذه المواقف من صديقه الصادق ويبيعه بأبخس الأثمان.

أخي الأستاذ فؤاد مطر:

لقد ذكرتً في سياق مذكراتك عن الصادق المهدي انك تعتز بصداقته وما ذكرْتَه لا يفســـر الود الذي بينكما. نتمنى ذلك وإني أدعو الله أن تحرص عل صـــداقة المهدي، وربما تُظهر لك الأيام والتاريخ بأن المهدي مخضرَم بحق وحقيقة.

كما أرجو يا عزيزي فؤاد مطر أن لا تُفسد هذه المذكرة الود بين الصحفي والكاتب الضليع والقارىء المطَّلع والمعجَب بشخصية المهدي كزعيم وطني وسياسي محنَّك عف اللسان طاهر النفس متطلع لإخراج السودان من بؤرة التبعية المطْلقة.

وإنني يا أخي فؤاد من أكثر المعجبين بكتاباتك وتحليلاتك السياسية عن السودان والعالم العربي من دون الصـــحفيين والكتّاب العرب جميعاً. ومواظب على مطالعة وإمتلاك مجلة التضامن العربية لأنها وثيقة سياسية مكتوبة بأياد وافكار صادقة مطابقة لحقائق واقعية في زمانها كما أنها مرآة تعكس ما خلْف الكواليس العربية.

أرجو قبول إعتذاري وأسفي الشديديْن إذا جنحتُ في الإساءة لشخصكم الكريم. وهذا من باب اللطف والعتاب دفاعاً عن الصادق المهدي.

السبت ١٤/١٠/١٩٨٩

عوض الله كباشي

جدة – السعودية

من أجْل إستقرار السودان بعودة السيديْن والآخرين ولا يصاب نميري الذي عاد برمح أنصاري غاضب

من العاصـــمة المثلثة للســـودان (الخرطوم والخرطوم بحري، وأم درمان) تبث الفضـائيات العربية قبْل ظهر يوم السبت ٢٢ مايو (أيار) ١٩٩٩ بالصـوت وبالصـورة الملونة الحدَث الذي إسـتعصـى على العرب الذين شـاهدوا التفاصـيل إسـتيعابه. ففي التاريخ السياسـي العربي الحديث ليس مألوفاً على الإطلاق عودة حُكام سـابقين سـقطوا بفعل إنقلاب عسـكري أو إنتفاضـة شـعبية أو الأمريْن معاً كما حدَث للرئيس الأسـبق جعفر نميري. كما أنه أداء غير مألوف وإلى درجة الإسـتحالة أن تكون العودة ذات ملامح رئاسـية بمعنى أن يعود الرئيس المقيم منذ أربعة عشـر عاماً في القاهرة كلاجئ سياسي إلى بلاده في طائرة رئاسية ويتم إستقباله رسمياً وشعبياً.

ومثْل هذا الحدَث يسـتوقف المراقبين والراصـدين للتطورات السـياسـية العربية والتطورات التي شـهدها السـودان على مدى أكثر من ثلاثة عقود. وبصـفة كوني واحداً من هؤلاء الراصـدين والمتابعين، فإنني أُسـجل بعض التفسـيرات والإجتهادات المتعلقة بهذا الحدَث من خلال الملاحظات الآتية:

أولاً - لم يحدُث في تاريخ السودان المستقل أن عومل رئيس سابق سقط حُكمه بفعْل إنقلاب مثْل هذه المعاملة التي لقيها نميري. فالرئيس (المدني) إسـماعيل الأزهري كان منفياً داخل بلده. والرئيس (العسـكري) الفريق إبراهيم عبود الذي تسـلّم الحُكم بعده كان أيضاً شبه منفي. وفي حين إستعاد الأزهري إعتباره بعدما أسقطت ثورة أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٦٤ المدنية الحُكْم العسكري وإستمر هذا الإعتبار خمس سنوات، فإن الفريق عبود إستمر مهمَّشاً إلى أن توفاه الله فجرى تشييعه رسمياً.

ثانياً. لا يمكن إعتبار الرئيس الأسبق نميري بأنه كان منفياً. فالتفسير العِلمي لكلمة المنفى أنه كان في بلده وقامت سُلطة جديدة قضت بتسفيره إلى الخارج على نحو ما جرى، على سبيل المثال لا الحصر، مع الصادق المهدي وعبد الخالق محجوب، اللذين طلب الرئيس المصري (الراحل) جمال عبد الناصر من نميري نفيهما إليه لكى يرتاح من مشاكساتهما ولكي يكونا موضع تكريم في رحاب الحُكْم المصري.

كذلك، وعلى سبيل المثال لا الحصر، ما جرى للملك فاروق الذي تولت السُلطة الثورية التي قامت يوم ٢٣ يوليو (تموز) ١٩٥٢ تسفيره، وما جرى للرئيس السوري شكري القوتلي الذي تولت السُلطة الإنقلابية بقيادة الزعيم حسني الزعيم تسفيره بعد فترة إحتجاز. ومِن هنا فإن نميري كان أقل من ضيف وأكثر من لاجئ سياسي في مصر، أي بما معناه إن حالته كانت مثْل حالة الملك إدريس السنوسي الذي إستقر به المقام في مصر في عهد الرئيس السادات ومِن دون أن تكون إقامته ورقة في لعبة المشاكسات التي إستمرت طويلاً بين مصر الساداتية وليبيا القذّافية، أو تكون هذه الإقامة ذات تأثير على شهور الإزدهار المتقطع في العلاقة بين الرئيسيْن السادات والقذّافي.

وثمة ما يلفت الإنتباه وهو أن إقامة الرئيس السوداني الأسبق نميري في القاهرة كانت محسوبة بدقة. فهي لم تكن إقامة بمستوى خمس نجوم، ولكنها كانت على شيء من التميز على صعيد الراحة السكنية والطمأنينة الأمنية وكذلك على صعيد مستلزمات الإعاشة حيث أن الوجبات اليومية كانت تأتي في مواعيدها من الرئاسة. كما يلفت الإنتباه أن العلاقة بين الحُكْم المصري وأقطاب المعارضة السودانية، وبالذات بعد مغادرة الصادق المهدي السودان وإلتحاقه بأركان المعارضة الذين إتخذوا من إريتريا منطلقاً لتحركاتهم وإتخذوا من السفارة السودانية في العاصمة الإريترية (أسمره) مقراً سياسياً لهم... ان العلاقة المشار إليها إزدادت توثقاً بينما نميري يقيم في القاهرة.

مبارك أنقذ نميري

ثالثاً- كان من حُسْن حظ الرئيس نميري منذ الإنقلاب عليه أن الرئيس حسنى مبارك أنقذ حياته، حيث أنه أبقى عليه في القاهرة بينما كان هو يخطط لمتابعة السفر إلى

الخرطوم وفي إعتقاده أنه يستطيع إفشال الحركة الإنقلابية التي قادها الفريق اول عبد الرحمن سوار الذهب، وهو لو واصل السفر لكان سيجد نفسه أمام خمسة إحتمالات أقلها حظاً على صعيد النجاح إفشال الإنقلاب عليه الذي جرى بينما هو في زيارة واشنطن، وسلاحه في ذلك الشرعية والمؤسسة العسكرية المتماسكة والتنظيمات المدنية الشعبية التي أنشأها خلال حُكْمه. أما الإحتمالات الأُخرى فهي: أن يتم إسقاط طائرته قبْل أن تحط في أرض المطار. أو تندفع الجماهير الغاضبة نحو المطار ويحدُث له مكروه كبير كأن برميه أنصاري غاضب برمح يودي بحياته على نحو ما جرى للإنكليزي غوردون باشا، أو تُقرر السُلطة الإنقلابية إعتقاله لمجرد نزوله من الطائرة وإيداعه السجن وإخضاعه للمحاكمة تحت ضغط خصومه الذين يريدون رأسه. أو الإحتمال الأخير هو الأكثر خطورة وهو أن تحدُث حرب أهلية في السودان وينقسم الجيش ويتلبنن البلد إذا جاز القول.

ومن هنا فإن ما فعلَه الرئيس مبارك كان بالغ الأهمية لأنه بالإبقاء على صديق مصر في عهودها الثلاثة (عبد الناصر والسادات ومبارك) في القاهرة أنقذ نميري من جهة، وأبعد عن السودان شرور فتنة أو حرباً أهلية كان ممكن أن تقع.

وفي القاهرة كان نميري في غاية الإنضباط بمعنى أنه إكتفى بتحويل مقر إقامته الذي خصصتْه الحكومة المصرية ومكتبه الذي إستأجره إلى ديوان للتشاور السياسي مع زواره مِن الذين شغلوا مناصب في عهده ومِن بعض السودانيين الذين تربطه بهم صداقات. وبين الحين والآخر كان يدلى ببعض الأحاديث إلى الصحافة وكان في هذه الأحاديث كثير التحفظ، الأمر الدي أفاد في الإبقاء على خطوط الإتصال بالنظام في السودان سالكة، وهو في الأصل إعتبر أن هذا النظام الذي يقوده الفريق أول عمر البشير لا يتحمل وزر ما أصابه، لأنه ليس هو الذي أسقط حُكْمه. بل إنه كان يرى أن الفريق أول البشير ورفاقه ثأروا له من الذين أسقطوه أي الفريق أول عبد الرحمن سوار الذهب والثنائي المدني الصادق المهدي ومحمد عثمان الميرغنى. أما موقفه من الدكتور حسن الترابي، الأب الروحي والفكري للنظام الحالي في السودان، فإنه لم يتجاوز العتب القاسي. ولو كان الموقف أكثر من ذلك لما كان للعودة أن تتم بالتكريم الذي رافقها. فالجناح العسكري في النظام يراعي خاطر الدكتور الترابي، وبالذات في الترتيبات التي

تخضع للإجتهاد. ومن جانبه فإن الدكتور الترابي يضغط على نفْسه عندما يكون هنالك موجب لتفهُّم خيارات لرفاقه وتلامذته أبناء المؤسسة العسكرية. وتلك في أي حال ليست كل المعادلة، لأن هنالك على هامشها ما يجوز أخْذه في الإعتبار بمعنى أن الظروف تتطلب أحياناً بعض المقايضات. وفي هذا الإطار فإن لقاء جنيف بين الترابي ونسيبه الصادق المهدي كان في جانب من الجوانب بمثابة مقايضة طرَفها الآخر أن يستعيد الجناح العسكري في النظام إبن المؤسسة العسكرية جعفر نميري وهي خطوة من شأنها أن تُرضي جيل السبعينات في الجيش، وبالذات المجموعة التي شاركت نميري في الحُكْم والذين ما زالوا على كثير من الحيوية حيث إنصهر بعضهم في النظام وإختار البعض الآخر الإبقاء على مسافة بينه وبين النظام، أي بتوضيح أكثر تحديداً إن الفريق أول عمر البشير ورفاقه الضباط إستعادوا رفيق سلاح كان في قمة السُلطة، وأن الدكتور حسن الترابي خطا الخطوة الأكثر أهمية على طريق إستعادة خال أولاده وبذلك يهدأ بال الأُسرة الصغيرة ويتلاشى الحرَج أمام الأُسرة الكبرى أي طائفة الأنصار التي ترفض أي حيثيات يقولها الترابي أو الترابيون، وترى أنه اذا كانت طقوس العمل السياسي تسمح في أن يكون سيد الطائفة في المنافي بينما الصهر في قمة السُلطة، فإن قانون القربى والمصاهرة لا يجيز مثْل هذا الوضع.

ونحن عندما نشير إلى ذلك نأخذ في الإعتبار أنه لم يكن من مصلحة الترابي ولا من مصلحة الصادق المهدي أن الحوار إقتصر عليهما ولم يشمل آخرين، وبالذات محمد عثمان الميرغني، إلاَّ إذا كانت ترتيبات الكواليس تهيئ لمفاجأة تُرضي مشاعر الختميين ولا تُبقي على الصادق في نظر معارضي الشتات أنه غادر السفينة التي بدأت تغرق في بحر المصالحتيْن المصرية - السودانية، والسودانية - الآريترية، وترَكَ الآخرين داخلها مع أنه هو قائد تلك السفينة.

رابعاً- جاء إختيار يوم السبت ٢٣ مايو (أيار) ١٩٩٩ موعداً لعودة نميري إلى الخرطوم يثير التساؤلات حول هذا التوقيت. وكان مقرَّراً أن تتم العودة يوم الجمعة ٢١ مايو ثم تأجلت يوماً، لسبب بالغ الأهمية قيل إنه عائد إلى أن الرئيس عمر البشير موجود في رحلة عمل خارج البلاد، وأنه يريد أن يكون في إستقباله في القصر

الجمهوري لمجرد خروجه من المطار بعد أن يتم إستقباله رسمياً مِن قِبَل ممثل للرئيس هو وزير شؤون رئسة الجمهورية العميد بكري حسن صالح.

ومحور هذه التساؤلات أن الرئيس الأسبق يعود في الشهر الذي قاد فيه ثورة ٢٥ مايو (أيار)، ويعود في اليوم الذي كان بدأ العد العكسي للإنقضاض على حُكم الأحزاب، عدا الحزب الشيوعي، وتسلّم السُلطة منهم، ويعود في الذكرى الثلاثين لقيام تلك الثورة التي إعتبرتْها الأحزاب (بما فيها الحزب الشيوعي الذي بات بعد ذلك عدواً) مجرد عملية إنقلابية لا أكثر. وقد يكون التوقيت مجرد مصادفة لا أكثر تُرضي مشاعر نميري، إلاَّ أنها في أي حال أفسحت في المجال أمام التفسيرات الكثيرة ومعظمها لا ينطلق من حُسن النية تماماً ولا تماماً من سوئها. وتلك حالة طارئة على نوعية الظنون التي بعضها إثم.

وهذا الإستقبال الرسمي الذي لقيه نميري هو خير ما يمكن أن يتطلع إليه رئيس سابق عاش في المنفى بعد إسقاط حُكْمه. ويقول المرء ذلك قياساً بما حدَث لحكام سابقين وزعماء ورجال دولة مرموقين ذاقوا مُر الإهانة بعد سقوطهم وحُرموا من نعمة رؤية الوطن ومن مواراتهم الثرى في ترابه، ومِن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر منغستو الحبشي ومحمد رضا بهلوي الفارسي والثلاثى البعثي السوري صلاح البيطار وميشال عفلق وأكرم الحوراني، والعراقي فاضل الجمالي.

وليس ذلك فحسب، لأن التوديع الرسمي الذي لقيه نميري في مطار العاصمة هو أيضاً خير ما يمْكن أن يتطلع إليه لاجئ سياسي. فقد ودَّعه أحد الوزراء، وكان إختيار وزير الأشغال والموارد المائية المصري الدكتور محمود أبو زيد إختياراً مدروساً حيث أنه يترك إنطباعاً بأن الرئيس حسني مبارك ولتفادي أي حساسيات كلَّف هذا الوزير بالمهمة وليس أحد جنرالاته أو وزير الخارجية أو وزير الإعلام، ليقول ما معناه إن أهم ما يربط بين مصر وبين السودان هو نهر النيل، الذي هو من إختصاص وزير الري.

على أبواب السبعين

وفي تقديرنا إن نميري الذي إعتقد في الأشهر الأُولى للإنقلاب عليه أنه يمكن أن يعود وفْق تكرار حالة ميلتون أوبوتي الذي عاد إلى الحُكم في أوغنده بعدما كانوا إنقلبوا عليه وأسقطوه، بات أكثر إدراكاً لواقع الأمور. فهو عندما إعتقد ذلك الإعتقاد كان في

الخامسة والخمسين وكانت صحته أفضل وهمَّته أقوى، أما الآن فانه في التاسعة والستين، ومَن هم في مثْل عمره يمكن أن يتطلعوا إلى تجديد الولاية والبقاء في الحُكْم بضع سنوات أُخرى (صديقه الرئيس حسني مبارك على سبيل المثال) إلاَّ أنه من غير الجائز أن يخطر ذلك في بالهم إذا باتوا من السابقين. وأكثر ما مِن حقهم التطلع إليه هو تمضية ما تبقَّى من العمر في رحاب الوطن بين المسجد والمنزل وإستقبال صفوة الأصدقاء وزيارتهم وتفقُّد أضرحة الأهل والأولياء الصالحين، والتوجه كل سنة إلى مكة المكرمة لتأدية العمرة، والخضوع إلى المزيد من العلاج داخل البلد وخارجه، ومداراة الصحة ما أمكنت المداراة. وإلى ذلك وكواجب وطني، إسداء النصيحة في ضوء طلب المغفرة وممارسة النقد الذاتي عن أفعال حدثت في الماضي، وممارسة العمل السياسي بعيداً عن إنبعاث هوَس التآمر، وعلى الطريقة التي يمارس بها هذا العمل الرؤساء السابقون في بعض الدول ومِن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر الرؤساء جيمي كارتر وجورج بوش وجيرالد فورد وجيسكار ديستان وغيرهم، مع تسجيل الأسف لأن الساحة العربية خالية تقريباً مِن مثْل هذه الظاهرة.

ونلاحظ أن الرئيس السوداني الأسبق يريد أن يخوض الميدان بحزب لم تنجح فكرته أيام كان في قمة السُلطة (بدليل أنه لم يدرأ الخطر عن النظام فتهاوى على أهون السُبل) فكيف ستنجح الآن. وعندما نقول ذلك نأخذ في الإعتبار أن التحالف المطلوب الذي يمكن أن يحقق الإستقرار للسودان هو تحالُف رموز القوى السياسية السودانية مع مشاركة فاعلة للمؤسسة العسكرية وذلك من أجْل ألاَّ تبقى هذه المؤسسة إما مستهدَفة مِن تلك القوى، وهذا يتسبب في حساسيات تنتهي في غالب الأحيان إلى حدوث إنقلابات ذات طابع مغامر في معظمها، أو يكون دورها فقط هو حماية التجارب الديمقراطية بخيرها وشرها ونزوات بعض رافعي أعلامها والإستغراق في مناقشات ذات طابع "الوَنَسات"، (وهي كلمة يقتصر إستعمالها على إخواننا السودانيين وتعني المناقشة بهدف إضاعة الوقت ليس إلاَّ...).

والذي يوجب إعتماد مثْل هذا التحالف هو أنه لم يَبق أحد من أطراف القوى الحزبية السياسية في السودان إلاَّ وأخذ نصيبه من الحُكم. كما أن الجميع بمن فيهم عساكر السودان الذين تقاسموا سنوات الحُكم منذ الإستقلال وحتى الآن، مارسوا اللعبة الدموية

في شـــكل أو آخر وتَلطَّخ جلباب أو عمامة ذاك أو البذلة الكاكية اللون لهذا أو ذاك مِن الحكام العســـاكر بنقاط دماء نزفت من أجســـاد اشـــخاص كان يمكن معالجة مغامرات إقترفوها، بالحسنى.

خامســـاً- كان المرء يتمنى لو أن البيان، الذي قرأه الرئيس الأســـبق نميري في الإستراحة الرسمية في مطار الخرطوم، شملَ ما يشبه الأسف على بعض المآسي التي حدثت خلال ســنوات حُكْمه وتســببت إلى جانب الدماء التي ســالت، في جراح معنوية عميقة ما زالت تحفر في النفوس حتى الآن. ونقول ذلك على أساس أنه لا يكفي أن يقول الرئيس الأسبق إنه «يهيب بالسودانيين جميعاً وكافة القوى الوطنية نبْذ الفِرقة والشتات لتحقيق المصـــالحة الوطنية مِن أجْل بناء الوطن» من دون أن يعالج وبصـيغة إعتذارية ما فعله نظامه بإمام طائفة الأنصـــار الهادي المهدي وبإثنيْن من قادة العمل الوطني هما عبد الخالق محجوب والشـفيع. فقد كان هنالك إســتعجال في تصــفية الأول وفي إعدام الإثنيْن الآخريْن مع أن الثلاثة هم من المدنيين الذين لهم رؤاهم الســياســية القابلة للأخذ والرد، فضلاً عن أن سِجْن «كوبر» هو في الحد الأقصى لمثْل هذه الحالات. وما يمكن أن ينفِّذه حكام عســكريون بزملاء لهم أمثال هاشــم العطا وبابكر النور وفاروق حمد الله إفترضــوا أنهم قادرون على قلْب الحُكم وتســلُّم السُـلطة وخرجوا بذلك عن الإنضــباط العسكري، لا يجوز أن يشمل المدنيين في أي حال، ذلك أن الممارسة السياسية لهؤلاء عموماً وبالذات في الســـودان وضِـــمْن قوانين اللعبة الديمقراطية العريقة تجعلهم دائماً خارج الإنضباط.

وفي تقديرنا إنه لو لمَّح الرئيس الأسبق نميري في بيانه إلى هذا الأسف الذي أشرنا إليه لما كانت مشـــاعر الثأر الأنصـــاري إنبعثت بالحدة التي إنبعثت بها حيث إنطلقت أصـوات أنصـارية، من بينها صـوت الدكتور الصـادق الهادي المهدي، الإبن الأصـغر للإمام الهادي، يقول أصحابها إنهم سيرفعون دعوى ضد نميري وإنهم سينَظمون مسيرة إحتجاج على عودته. وعلى رغم وجاهة هذه الصـــيحات من حيث المشـــاعر، إلاَّ أن المنطق ضـعيف في شـأنها ليس لأن أبناء الطائفة ليسـوا موحَّدين بدليل أنهم إلى الآن لم يتفاهموا على مَن يكون إماماً لهم بعد الهادي، وإنما لأن مسـألة تصـفية الإمام ودفْنه في مكان معروف وغير معروف حتى الآن يُفترض أنها طُويت بالمصـــالحة الوطنية بين

الرئيس نميري والسيد الصادق المهدي، ولا يقلل من هذه الحقيقة أن المصالحة لم تصمد ولا أن أبناء الإمام منقسمون وأمضوا فترة طويلة صامتين على فجيعتهم منشغلين بمن يتزعم الطائفة ويحدد خياراتها السياسية. والذي يزيد من وجوب إبداء الأسف أن نميري يردد في إستمرار أنه من عائلة أنصارية. ومَن كانت هذه جذور عائلته يكون عليه واجب إبداء التقدير في الحد الأدنى والطاعة في الحد الأقصى لمن يكون إمام هذه الطائفة. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن نميري هو الذي قام بتفكيك الأُسرة المهدية لتصفية الإمام الهادي لأن الذي حدَث بعد ذلك هو أن هذه الأُسرة لم تتفق على مَن يكون الإمام: هل هو الأخ السيد أحمد على أساس أن العُرف يقضي بأن يتوارث الإخوة الإمامة، أم هل هو السيد الصادق الذي أراد إحداث ثورة على التقليد المتَّبع بحيث يكون للجيل الثاني أحقية في تبوؤ المنصب أي بما معناه يكون هو الإمام مستنداً في ذلك مِن جهة إلى أن والده الإمام الصِدّيق شغل المنصب مِن قبْل وإلى أنه كان قرة عين جده (الإمام عبد الرحمن) على نحو مكانة الملك حسين (أطال الله عمر الصادق) في نظر جده الملك عبد الله. ولو أن أبناء الإمام الهادي كانوا متفاهمين ومتحدين ومتأكدين مِن أن الصادق يمْكن أن يُسمي في حياته واحداً منهم (وليس إبنه عبد الرحمن) لكي يكون الإمام مِن بعْده لكانوا حسموا الأمر وبايعوه كرجل واحد، ولكان موقف عمه السيد أحمد بات ضعيفاً.

وإذا جاز القول فإن تصفية الإمام الهادي بالشكل الذي تمت فيه، وتركيز نميري سابقاً وحتى الآن على أنه من عائلة أنصارية تحتمل تفسيريْن: الأول إنه كان يتطلَّع إلى أن يكون هو إمام طائفة الأنصار وما دام بات رئيساً للسودان فهذا ليس بالأمر الصعب مِن وجهة نظره. أما التفسير الثاني فهو أنه كأنصاري يريد أن يكون - ما دام في قمة السُلطة - صاحب الرأي الأول في إختيار مَن يكون الإمام وأن يكون ولاء الإمام له وليس لأي طرَف خارجي. وهي في أي حال مجرد إستنتاجات عززها بعد ذلك جنوحه نحو التوجه الإسلامي وفْق إيقاع سريع وصل إلى حد الإصرار على مبايعته كإمام في منصب أو كرئيس جمهورية بتطلعات، الى أن يكون إماماً ليس فقط للأنصار وإنما لكل السودان وربما لبقية المسلمين، وهذا في أي حال ما عجَّل في إسقاط نظامه.

سادساً- مِن الواضح أن سرعة نميري في العودة تسببت في تباطؤ إستكمال جولة ثانية من الحوار وفي جنيف أيضاً بين الدكتور حسن الترابى والسيد الصادق المهدي. ومِن الجائز القول هنا أيضاً إن طبيعة الإستقبال الذي جرى لـ نميري في مطار الخرطوم أضافت المزيد من التباطؤ، ربما لأن الصادق رأى في هذا الإستقبال ما يدعو إلى الإستفزاز، وإن كان هنالك تفسير إيجابي خلاصته إن تَجاوبك (أي الصادق) مع الحوار الذي يجريه الترابي سيلقى الترحيب نفْسه وسيكون لك إستقبال مماثل على الصعيد الرسمي في مطار الخرطوم ولن تكون هنالك قيود تفرضها الحكومة على الإستقبال الشعبي، على نحو ما حدَث عند مجيء السيد الصادق في الماضي إلى السودان لإنجاز المصالحة الوطنية مع الرئيس نميري، وبذلك لم تتمكن جماهير الأنصار مِن تنظيم إستقبال حاشد له كان سيتخلله ذبْح بضع مئات من الخراف أمام ساحة المطار. أما لماذا لم تتمكن فلأن لقاء نميري بالصادق تم سراً في بور سودان ليلة السادس من يوليو (تموز) ١٩٧٧ وسْط إجراءات أمن مشددة وبعيداً عن عيون الفضوليين والحاسدين والكارهين من أهل النظام ومِن بعض رفاق الصادق في جبهة المعارضة.

ومن المؤكد أن البث الفضائي لوصول الرئيس الأسبق نميري إلى مطار الخرطوم والحفاوة الرسمية والشعبية التي لقيها هناك، جعلا جماهير الأنصار في الشتات وفي الداخل ترى بأم العين هذا التكريم وتتطلع إلى تكريم مماثل يلقاه الأحق عندما يعود. ونقول ذلك مع الأخذ في الإعتبار أن الحفاوة التي لقيها الرئيس الأسبق نميري في مطار الخرطوم حدثت كون العائد هو إبن المؤسسة العسكرية ولا نظن أن مثْل هذا التكريم - ما دامت المؤسسة هي التي تحكُم البلاد - سيحظى به تماماً العائد أو العائدون مِن المدنيين مثْل السيديْن الصادق المهدي ومحمد عثمان الميرغنى وغيرهما. وبالنسبة إلى الصادق شخصياً فإن ما يجوز إفتراضه هو آن الرجل يتطلع الى أن يحظى بإستقبال تاريخي من نوع الإستقبال الذي حظي به الإمام الخميني عندما عاد من باريس ويبسط إمامته على إيران التي نجحت فيها الثورة التي قادها من «نوفل لوشاتو» احدى ضواحي العاصمة الفرنسية، فسقط الحُكم الشاهاني وحل محله حُكم رجال الدين في أول تجربة من نوعها في تاريخ المنطقة والعالم الإسلامي. بل إن الصادق عندما غادر السودان وإلتحق بأركان المعارضة المقيمة في أسمره، كان يكرر إقتباساً ما فعله الإمام

الخميني عندما غادر إلى فرنسا يعدما ضاقت به سُبل الإقامة في العراق وبعدما تفادت الكويت إشكالاً مع العراق بعدم سماحها له بالدخول لكي يستقر فيها ويستفيد من وسائل الإعلام فيها على نحو بعض ما تستفيده منظمة «مجاهدي خلْق» من وجودها الحالي ومنذ بضع سنوات في العراق. ومثْل هذه العودة التاريخية للإمام الخميني كان يمكن أن تتحقق للصادق لو أنه نجح بعدما تسلَّم زمام قيادة المعارضة في إسقاط نظام الجبهة الإسلامية، لكن ذلك لم يحدُث وكان أهل النظام قي السودان بجناحيْه المدني والعسكري أكثر قدرة على التخطيط والصمود، الى أن بدأوا مصالحة وطنية قد تُحقق للسودان الإستقرار إذا هي إكتملت بعودة المعارضين في الشتات، الذين إستبد بهم الشوق إلى الديار. بل قد يجوز الإفتراض أن هذا الشوق كان من جملة الأسباب التي ضغطت على وجدان الرئيس الأسبق نميري لكي يتجاوب مع دعوة الرجوع إلى الوطن مِن دون الإشتراطات التي بدأ السعي لها عن طريق نائب رئيس الجمهورية اللواء الزبير، رجل الإنفتاح في النظام الحالي في السودان والذي كان مؤهَّلاً ليواصل الحُكْم بعد الفريق أول البشير، ثم تأجَّل السعي بعدما قضى الزبير في حادث طائرة وتشاء الأقدار أن يتم إسكان نميري العائد في منزل اللواء الزبير. كما أن هذا الشوق سيكون مِن جملة الأسباب التي تجعل معارضي الشتات يقللون من الإشتراطات، وهم في الأصل لم يكونوا واقعيين عندما كانت إشتراطاتهم تُراوح بين إستقالة النظام الحاكم في السودان طوعاً أو إستقالته تحت وطأة هجومات على بني قومهم في مناطق الحدود، وهي هجومات ألقت بعض الظلال على مصداقيتهم وعلى البُعد الوطني لمعارضتهم.

يبقى ختاماً لهذه الملاحظات القول إن ما هو الأهم مِن عودة الرئيس الأسبق جعفر نميري والعودة المتوقعة للسيد الصادق المهدي والعودة التي باتت ممكنة للسيد محمد عثمان الميرغني والآخرين، هو أن العلاقة المصرية - السودانية (في ضوء لقاء في القاهرة بين وزيريْ خارجية البلديْن كِدْنا نسمع صوت ضحكاتهما ونحن نتأمل في الصحف صورة ذلك اللقاء) مرشحة لأن تستقيم وأن تتعزز أكثر فأكثر، ربما لأن السودان الذي بات نفطياً سيكون على لائحة الدول التي يعني الولايات المتحدة كثيراً أمْر إستقرارها. وهنالك مثال على ذلك ما حدَث في اليمن وله حيث أن الخصوصية الأميركية للنظام الذي يقوده الرئيس علي عبدالله صالح جعلتْه يصمد أمام أعتى مواجهة

مع شـقيقه الجنوبى وأمام إسـتفزاز جاره البحري إريتريا. وبالنسـبة الى السـودان فإن الجامع المشـترك في مثل هذه الحال لكل الرموز هو الصـداقة مع الولايات المتحدة بدءاً مِن رئيس النظام الفريق أول عمر البشـير الذي تَصـالح فجأة وبرعاية أمير دولة قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني مع رئيس النظام في إريتريا أسياس أفورقي، مروراً بعودة الرئيس الأسـبق نميري الصـديق الصـدوق للولايات المتحدة مِن أيام الرئيس رونالد ريغان الغائب منذ سـنوات عما يجري في العالم لفقدانه الذاكرة تماماً، إلى الصـادق المهدي ومحمد عثمان الميرغني وجون قرنق الذين طالما قرعوا الأبواب الأميركية لمساعدتهم على إسقاط النظام في السودان.

وما يحدُث في السـودان قد يحدُث في ليبيا بعدما إنتهت المرحلة الأُولى من أزمة لوكوربي وتنتهي المرحلة الثانية بإدخال ليبيا التي تكون أنجزت مصـالحة وطنية، في محور أميركي جديد تبرز أهميته فجأة مع بداية القرن الواحد وآلعشـرين ويضـم المثلث الأكثر ثراء وخصوبة وسكاناً في القارة الأفريقية: مصر والسودان وليبيا.

ومَن يعشْ ويُكثر من التأمل، سيرى نفسه أمام مفاجاءات كأنها شريط سينمائي. وما يتمناه المرء هو أن لا يعكِّر رمْح انصـاري غاضـب يرمي به الرئيس الأسـبق جعفر نميري الواقع السـياسـي الجديد للسـودان الذي يسـتمر بناؤه وتكوينه بالكثير من التعقل، وبحيث أن بلد المليون ميل مربع يكون وللمرة الأُولى لكل السـودانيين. وتفادي هذا الأمر من المهام الثقيلة الملقاة على كاهل أحد الصـادقيْن: الصـادق الصـدِّيق المهدي والصادق الهادي المهدي.. أو على واحد منهما بحيث إما يدعو الأول الذي هو إبن الأخ إلى التسامح لبدء صفحة جديدة، أو يعلن الثاني (الذي هو أصغر الأبناء وبإسم العائلة) أن إستقرار السودان يستحق إعتبار فواجع الماضي من الأمور التي يجوز الصفح عنها.

الأحد ١٩٩٩/٥/٣٠

اللقاء الأول بين الصادق المهدي والخميني في "نوفل لو شاتو" من اليمين: الزميل فؤاد مطر ناشر ورئيس تحرير مجلة "التضامن"، صهر الخميني، الصادق المهدي، الخميني، إبراهيم يزدي الذي شغل ابعض الوقت منصب وزير الخارجية، عثمان خالد، آية الله حسين منتظري

الصحافي والكاتب فؤاد مطلا يتوسط "الصديقيْن اللدوديْن" الرئيس جعفر نميري والسيد الصادق المهدي في لقاء جرى في "قاعة الصداقة" بعدما أثمرت النوايا مصالحة بينهما وكان فؤاد مطر من الساعين لدى صديقيْه من أجْل تحقيقها

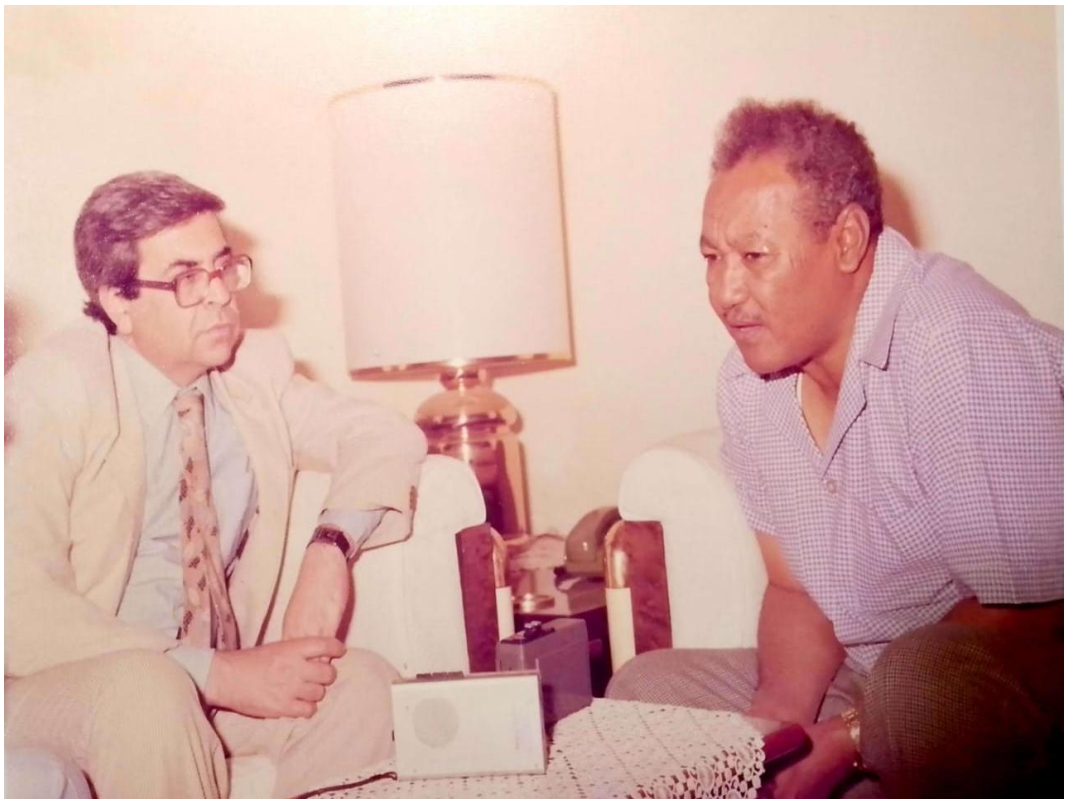

لقاءات في مناسبتيْن بين الرئيس جعفر نميري والصحافي الكاتب فؤاد مطر

الكاتب والصحافي فؤاد مطر خلال تهنئة للرئيس جعفر نميري العائد إلى الخرطوم
مواطناً بصفة رئيس سابق من فترة إقامة كريمة له من جانب الرئيس حسني مبارك
على إثر سقوط "نظام ثورة مايو"

لقاءان حواريان في مناسبتيْن أجراهما الصحافي والكاتب فؤاد مطر مع الدكتور حسن الترابي الذي تحالف مع الرئيس عمر البشير ثم كان الصراع بينهما الذي إنتهى بإنقلاب الترابي على العلاقة مع نظام البشير

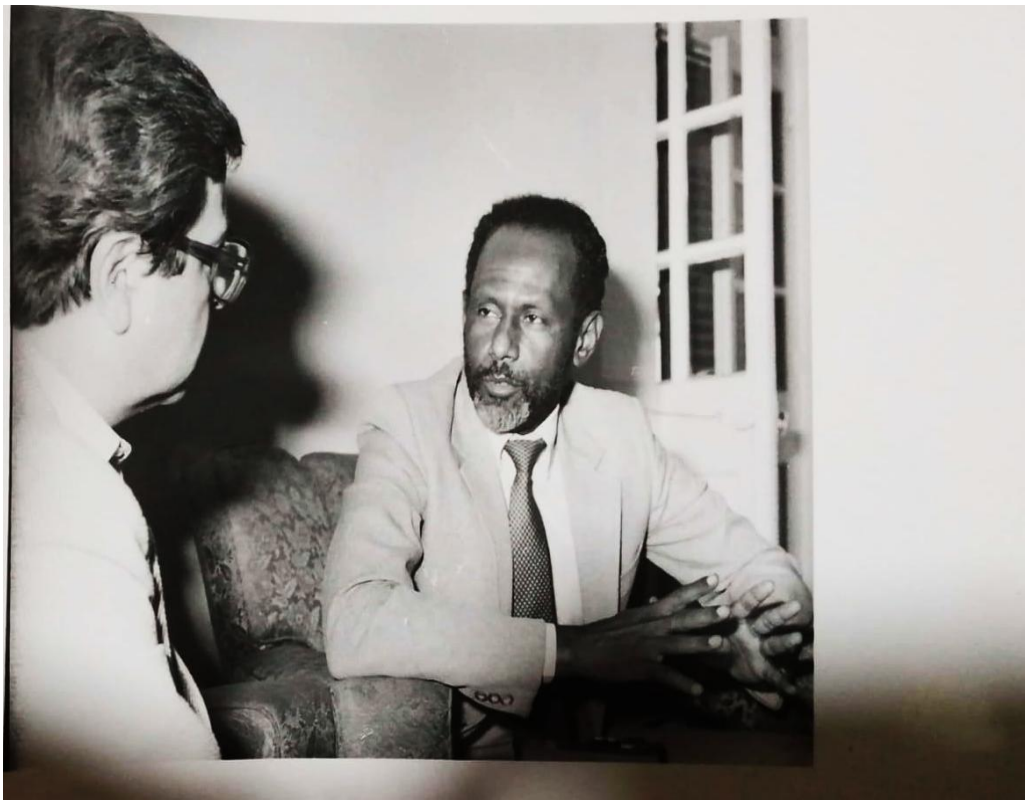

السيد الصادق المهدي خلال زيارة لمكتب الصحافي والكاتب فؤاد مطر في لندن

... ولقاء بين الصديقيْن على شرفة دارة السيد الصادق المهدي في أم درمان

... ولقاء في منزل الصحافي والكاتب فؤاد مطر في منزله في لندن كانا صديقاه السيد الصادق المهدي والأستاذ محمد حسنين هيكل وزوجة كل كنهما ضيوفاً على صاحب الدار وعائلته

الفريق عمر البشير ونائبه العميد الزبير خلال إستقبالهما للمبعوث المصري في الخرطوم

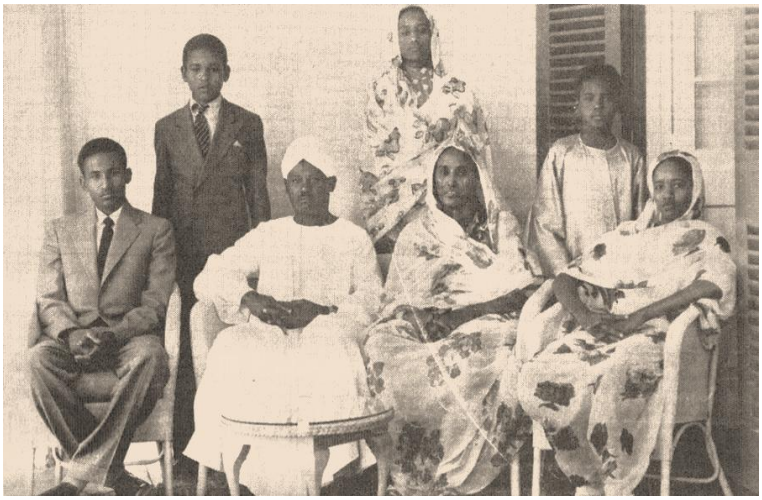

الإمام الراحل الصديق (والد الصديق) جالساً يحيط به أفراد عائلته وهم جلوساً من اليمين: وصال شقيقة الصادق وزوجة الدكتور حسن الترابي ثم والدة الصادق المرحومة رحمة ثم الصادق. ويبدو وقوفاً من اليمين شقيق الصادق فيصل وشقيقته شامة وشقيقه المرحوم صلاح

مظاهرات في شوارع الخرطوم خلال إنتفاضة أبريل (نيسان) ١٩٨٥